من مذكرات بيهم

يعتبر الأستاذ محمد جميل بيهم من المؤرخين العرب المعاصرين المعدودين . وقد صدرت له عدة كتب في التاريخ العربي الحديث عامة ، وفي التاريخ اللبناني المعاصر خاصة . وقد عرضت له (المعرفة) في العدد / ٨٧ / (أيار — مايو ١٩٦٩) كتابه (عروبة لبنان) ، وفي العدد / ٩١ / (أيلول — سبتمبر ١٩٦٩) كتابه (لبنان بين مشرّق ومغرّب). ويسر (المعرفة) أن تقدم — فيما يلي — مقتطفات من مذكراته حول الثورة العربية ، التي لم تنشر حتى الآن:

وضع ابن خلدون مقدمته في اواخر القرن الرابع عشر ، وقد التفت يمنة ويسرة يتفقدقومه اولئك الذين سادوا وشادوا وبنوا ، وطبعوا العالم بطابعهم خلال القرون الثلاثة : الثامن والتاسع والعاشر للميلاد ، فلم ير سيداً مستقلاً منهم خارج شبه جزيرتهم . وحينئذ سمح لنفسه أن يقول : « توحشوا كما كانوا ، ولم يبق لهم من الملك الا انهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم . » ومضى يقول : « ولما ذهب أمر الخلافة منهم وامحى رسمها ، انقطع الأمر جملة من أيديهم ، وغلب عليهم العجم دونهم ، واقاموا في البادية القفراء لا يعرفون الملك ، ولا سياسته . بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم . »

والواقع فان العرب في أيام ابن خلدون ، وان لم يكونوا على ما وصفهم به صاحب المقدمة ، الا انهم كانوا في الجملة قد خسروا سلطانهم السياسي ، ولم يبق لهم منه الا دولة بني الاحمر في غرناطة (١٢٣١ – ١٤٩٢) وكانت يتيمة في الاندلس تدافع عن البقية الباقية من حكم المسلمين في تلك الديار . وذلك بالاضافة الى امارات في شبه الجزيرة العربية لا شأن لها ، وعلى رأسها الدولة الرسولية في اليمن (١٢٨٨ – ١٤٥٤) .

وصادف ان ولد في مدينة سكود بالاناضول ابن للامير ارطغرل التركي ـ احد عمال سلاجقة قونية ـ وذلك في عام ١٢٥٨ اسماه ابوه (عثمان) . وهو العام الذي احتل فيه هولاكو بغداد ، والذي يعتبر عام انتقال راية الزعامة الإسلامية من يد العرب الى يد الاتراك . فقد قدر لهذا المولود أن يكون مؤسس السلطنة العثمانية سنة ١٢٩٩ ، كما قدر لهذه السلطنة أن تقوم على انقاض الامبراطورية البيزنطية ـ تلك التي كانت وقتئذ اعظم دول الغرب في الثقافة والسياسة ـ وأن تنطلق من عاصمتها القسطنطينية لفتح العالم . وقد اتيح لها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠

-- ١٥٦٦) احتلال الشرقين الأدنى والأوسط ، فضلاً عن شمالي افريقيا ، وشرقي اوروبا ، وتهديد فيينا وروما . ولما كانت الحروب تتسم في تلك العصور بالروح الدينية ، فان العرب ، في اعتزازهم بهذه الأمبراطورية ، تناسوا قوميتهم طوال تلك الحقبة .. ولما فتح السلطان سليم (١٥١٢ – ١٥٢٠) مصر وسوريا في مطلع القرن السادس عشر رحبوا به هنا وهناك واستسلمت له جزيرة العرب ، ونادوا به في كل مكان : سلطان البرين والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين ،وغضوا الطرف عن انتزاعه الخلافة منهم .

ولكن ما ان ذهب عصر آل عثمان الذهبي ، واستحوذ الضعف عليهم ، واتجهت دولتهم نحو الانحلال ،حتى اخــذ العرب يفتقدون قوميتهم ، ويحنون لاستقلالهم . وكان ظلم عمال هذه الامبراطورية ، الذي رافق عهد انحطاطها ، واستبداد جيشها الانكشاري حافزين للعرب للتفكير في الخروج عليها ، ولاسيما في شبه جزيرتهم . وكانت اليمن ــ ذات الحضارة القديمة والعريقة في الاستقلال – اول من تمرد على الأتراك ،وقامت بثورات متوالية انتهت بجلائهم عنها سنة ١٦٣٠ .

وكان اشراف مكة يمدون ائمة الزيود سراً بالمساعدات في غضون ثورات اليمن . ولما احرز هؤلاء الاستقلال نشط الاشراف للخروج على آل عثمان ، وظلوا يقاتلونهم حتى اضطروهم للاعتراف باستقلالهم سنة ١٦٩٥ ، ولكن هؤلاء واولئك لم يستطيعوا الحفاظ على هذا الاستقلال الا ردحاً من الزمن .

روى لي ابن العم المرحوم راشد بيهم ان الشريف عبد المطلب في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١) فكر في الخروج على آل عثمان على أن يكون هذا بثورة عربية عامة . فاتصل بالامير عبد القادر الجزائري بدمشق ، وبالامير محمد ارسلان بلبنان ، وبالحاج محيي الدين بيهم في بيروت ، ودعاهم الى

القيام بثورة مشتركة . ولكن حكومة استامبول تداركت الامر قبل وقوعه واستدعت الشريف المشار اليه حيث اعتقلته ، وبددت آماله

هذا، وفي غرة القرن الثامن عشر برزت اعظم ثورة عربية على الأتراك في جزيرة العرب ، واعني بها الثورة الوهابية الاصلاحية التي استولت على الحجاز ، وعلى قسم من جنوبي العراق ، وبلغت طلائعها مشارف الشام . ولكن السلطنة التي استعانت وقتئذ بمصر استطاعت ان ترد الوهابيين الى بلادهم .

واما في خارج جزيرة العرب فان هزائم الاتراك في الحروب التي شنتها عليها الدول الاوروبية منذ القرن الثامن عشر ، تلك الحروب التي كان يسميها الاوروبيون مقدسة ،شجعت البلاد العربية الأخرى على التفكير في الاستقلال : ففي العراق بسط آل مهنا حكمهم على النجف وما حوله حتى فالوجا ، واستولى آل ابي ريشة في عانة على اراض واسعة تمتد من هيت الى بيره‌جك ، بينما كان آل شبيب في المنتفك يهددون البصرة . ولما تمكنت سلطات بغداد من اسر احدهم وهو الشيخ سعدون - بحيلة نصبتها له - اتهمته صراحة بانه كان يعمل لاستعادة الحكم للعرب .

شهدت بلاد الشام ثورات متعددة على الاتراك ، وكان ابرزها ثورة الامير فخر الدين المعني الثاني ، التي كانت ذات طابع عربي . ومن الدلالة على ذلك ما رواه الشيخ احمد الخالدي في الكتاب الذي نشرته مديرية المعارف في لبنان بعنوان « لبنان في عهد الامير فخر الدين » . فقد جاء في هذا الكتاب : « وكل (الامير) الى كتخداه بالآستانة - الحاج درويش - امر الحصول على فرمان من السلطان يمنحه الولاية على ديرة عربستان ، فأتته البشرى والفرمان السلطاني سنة ١٦٢٤ على ان يكون متولياً على ديرة عربستان من حلب حتى حدود القدس » .

واما الادلة الأخرى فقـــد وردت في كتابي (عروبة لبنان) الذي صدر في العام الماضي .

ثم كانت ثورة الشيخ ظاهر العمر بفلسطين . فهو بالاتفاق مع روسيا خلال حربها ضد السلطنة العثمانية ، فتح عكا سنة ١٧٤٩ . وانطلق منها فاستولى على سواحل بلادالشام من تخوم مصر حتى طرابلس . وقد حدثتني المرحومة عمتي آمنة : ان الاسطول الرومي احتل وقتئذ بيروت ، وارسل مناديا ينادي في اسواقها : « سلطان ملطان ما في . ما في الا القيصرة كاترينا . »

واما في مصر فقد نشبت في عهدالمماليك ثورات اخرى كانت ذات طابع قومي ،وكان على رأسها ثورة علي بك الملقب بشيخ البلد في القرن الثامن عشر . فهذا استطاع بالاتفاق مع الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا، وبمساندة روسيا ،ان يستولي على قسم من جزيرة العرب ، وان يحتـــل من جهة اخرى دمشق . ثم كانت ثورة محمدعلي الكبير - جد الاسرة الخديوية - في القرن التاسع عشر ،الذي اتخذ لنفسه لقب « ساري عسكر الجيش العربي » في محاولة لاقامة دولة عربية في الجزء العربي من السلطنة العثمانية .

وكل هذه الانتفاضات كانت ذات نزعات قومية ،لأن العرب كانوا في تلك الأوقات يتذمرون من حكم الاتراك ويتمنون الانفصال عنهم على مايستفاد من الكتب الاجنبية في سياق حديثها عن الأحداث السياسية . فالمؤرخ الفرنسي (سديو) يروي في كتابه « تاريخ العرب » مايلي : « ارسل نابليون سنة ١٨٠٤ مسيو ليسقاريدس الى جزيرة العرب والعراق وسورية بغية الاتفاق مع امرائها وشيوخها على تسهيلهم المرور للجيش الفرنسي في بلادهم لاكتساح الهند . فكانت التقارير التي رفعها اليه تشير الى ان عموم العشائر البدوية ، ماعدا عنزة ، كانت تكره تركيا وتتمنى التحرر منها » . وقد ورد في كتاب « رحلات في بلاد العرب » لشارل دو كتي ، الذي صدر سنة ١٨٨٥ ،مايؤيد قول سديو . اذجاء فيه : « ان العرب يعتبرون الاتراك دخلاء على بلادهم، وأنهم لا يضمرون لهم الخير » .

كان القرن التاسع عشر ، الذي اختمر فيه مبدأ القوميات ، اشبه شيء ببركان يلقي الحمم على الشعوب المتعطشة الى الحرية فيشعلها ، ويدفعها الى الثورة في سبيل الاستقلال ، وكانت الدول الأوروبية الطامعة باقتسام تركيا تتخذ من هذا المبدأ مبرراً لها لاثارة الشعوب غير التركية في هذه الدولة ، ولاسيا في شرقي اوروبا . ولما دوت اصوات مدافع اساطيلها سنة ١٨٠٨ في مرفأ نافارين اليوناني، وذلك في غضون الثورة اليونانية على السلطنة العثمانية ، واحرقت نيرانها العمارتين العثمانية والمصرية، زعم ساسة اوروبا وقتئذ بان هذه الطلقات كانت تزف الى العالم بشرى انتصار المبدأ القومي . فكان ذلك مشجعاً لسائر بلدان شرقي اوروبا للخروج على استامبول تباعاً ، ولأن تحرز استقلالها ، واحدة بعد أخرى .

* * *

ثم جاء بعد ذلك دور البلدان العربية في عهد السلطان عبد الحميد وبعده . وقد نوهت اللجنة الملكية الانكليزية - التي جاءت سنة ١٩٣٧ للتحقيق في قضية ثورة فلسطين - بما كان للكلية السورية الانجيلية في بيروت من الفضل في بعث القومية العربية بين الشبيبة السورية ، وفي تحويلها الى المطالبة بالحكم الذاتي . ثم كان ما كان بعد ذلك من خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، واستبداد جمعية الاتحاد والترقي تحت ستار الطورانية ، ومن قيام الجمعيات العربية التي بدأت بالمطالبة بالعدالة الاجتماعية والمساواة ، وانتهت بنشدها الاستقلال التام ، ومن جراء ذلك وقع النفور بين العرب والترك . وقد عبر عن ذاك النفور الشيخ عبد الرحمن سلام بمناسبة وافدة غمرت بلاد الشام وقتئذ - حيث قال :

اتيت بيروت ضيفاً يا ابا الركب فكنت ضيفاً ثقيلاً سيىء الادب
يا ابن الجرائم لاتسكن منازلنا فقد كرهناك كره الترك للعرب

ولكن الحرب العالمية الأولى بدلت الوضع بين العرب والترك ،لأن الخوف من الدول الاجنبية كان حافزاً للعرب في بداية الأمر الى تناسي الماضي القريب وسيئات الاتراك ، وحافزاً لهم الى مشاركة هؤلاء المواطنين في تمني ادراك النصر ، كما ان حاجة الاتراك الى العرب ساقتهم لاسترضائهم ، والى نشد المعونة منهم باسم الاخوة والاسلام .

النعامة التي استأسدت :

لما دخلت السلطنة العثمانية الحرب يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٤ كانت جمعية الاتحاد والترقي تستأثر بالسلطة ، وكان على رأسها عسكريان : انور باشا وجمال باشا ،ومدنيان: طلعت بك وجاويد بك . فاختار هؤلاء احدهم -جمال باشا - ليتولى زمام بلاد الشام باسم قائد الجيش الرابع ، ومنحوه الصلاحية المطلقة .

وكانت سورية وقتئذ -بساحلها وداخلها - قاعدة للحركات العربية . لذلك فان جمال باشا جاءها على حذر وهو يرتدي ثوب النعامة . فشرع يلوح بالاسلام الذي لايفرق بين عربي وتركي ، ويحذر من الخطر الاجنبي الذي يهدده داعياً الى الاخوة والتضامن . كما اخذ يتبرأ من الطورانية ويشير الى حق العرب في الاستقلال . وعلى الرغم من الوثائق التي كشف النقاب عنها وقتئذ في القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق ، تلك الوثائق التي تدين كثيرين من السوريين واللبنانيين ،فقد تجاوز جمال باشا عنهاوا كتفى بمحاكمة نخلةباشا المطران الذيحكم عليه بالنفي مدى الحياة . بيدأنه اراد ان يجعله عبرة لغيره ،فأمر بتشهيره بدمشق

على شكل تقشعر منه الابدان . وقد قدر لي ان اشاهد هـــذا التشهير، فرأيتهم يركبونه عربة مكشوفة وهو واقف فيها بثوب (قره كوز) مطلي الوجه بالمساحيق الملونة ، وامامه رجل غليظ القلب يصفعه بنعله تارة من اليمين وتارة من اليسار ويكيل له الشتائم بين تصفيق الرعاع وهتافهم . ساقوه الى المنفى ، واغتالوه في طريقه اليه .

وهنا يبرز السؤال: لماذا تجاوز جمال باشا الآخرين ولم يسقهم الى المحاكمة؟ ذلك بأنه كان يعد العدة لفتح مصر . ويترقب من العرب في سوريا وغيرها المساعدة ،ولكن ما ان فشلت حملته على مصر بعد أن كانت الحرب تبسم في وجه المانيا وحلفائها خلال السنين الاولى من الحرب ، حتى طرح ثوب النعامة واستأسد . وحينئذ نصب ميزان الحساب ، وساق المتهمين الى المشانق في بيروت ودمشق على ثلاث دفعات خلال سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ وامر بنفي آخرين،وافتعل المجاعة ولا سيما في بيروت ولبنان كيما يصرف الناس الى التماس الرغيف . وهو في لامبالاته كان لايتورع في الترفيه عن نفسه كأن شيئاً من ظلمه لم يقع ، فقد كان هذا السفاح يصطاف في قصر آل كرم بصوفر فتسنى لي –وانا مصطاف فيدارنا بمحطة بحمدون- ان اشاهد ، في اكثر الليالي ، موكبه عائداً بعد منتصف الليل من المآدب والحفلات التي كان بعض اعيان البلد المستهترين يقيمونها له بسخاء بينما كان اكثر الناس يشتهون الرغيف ، وابان ما كانت ارواح الشهداء تحوم حول الوطن متفقدة مايجري فيه من المآسي .

الشريف حسين والثورة الكبرى :

لم تكن الامبراطورية العثمانية في اواخر ايامها ، مطمئنة الى اشراف

مكة ، ولذلك كانت تدعو المرشح منهم للامارة للاقامة في استامبول ، وتشمله بالرعاية بغية اتخاذه سلاحاً لها في وجه الشريف الحاكم اذا راودته نفسه الخروج عليها . وعلى ذلك فان الشريف حسين كان يقيم في العاصمة خلال حكم سلفه ، وقد عينه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٦ عضواً في مجلس الشورى . وكان صفوة باشا العوا في بغداد يشرف على تربية اولاده علي وعبد الله وفيصل . وقد قال لي - عندما كنت في بغداد سنة ١٩٢٧ ازور الملك فيصل - انه كان يرى علامات النجابة بادية على الامير عبد الله اكثر من اخويه .

وقد كان لهذه الإقامة الجبرية في عاصمة السلطنة ، وما كان يرافقها من اكرام الشرفاء ، أثر بالغ عليهم من حيث الولاء للدولة . ولذلك فان الشريف (حسين) ما أن تولى امارة مكة حتى كان هو واولاده ، يقودون الغزوات ضد كل متمرد على آل عثمان . ولكن الامير عبد الله كان اقلهم اخلاصاً للسلطنة . فلما ان اخذت تركيا تتأهب لدخول الحرب حتى ولى وجهه نحو بريطانيا . وكان يدفعه الى ذلك تنكر الاتراك للعرب واشفاقه على مصير الحجاز الاقتصادي اذا اشتركت دولته في تلك الحرب . ولذلك فانه في طريقه الى استامبول خلال شهر شباط ١٩١٤ مر بالقاهرة ، واتصل بكتشنر المعتمد البريطاني بمصر ، وحاول أن يعرف منه موقف لندن اذا ما نشب صراع سافر بين العرب والترك ، ثم والى اتصالاته به بعد أن عين وزيراً للحربية وذلك بواسطة خلفه رونالد ستورز بالقاهرة . وفي ٣١ تشرين الاول ١٩١٤ ابرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطانية بمصر رسالة موجهة الى عبد الله بمكة - وطلب منها أن تبعث بها اليه - يعلمه فيها بدخول تركيا الحرب ، واستعداد الحكومة البريطانية ، في حالة وقوف الشريف حسين في صفها ، لحمايته من كل اعتداء خارجي ، ومساعدة العرب على ادراك حريتهم .

وجاء في ختام هذه الرسالة تلميح مفاده ان الشريف حسين يستطيع أن يطمئن الى اعتراف انكلترا اذا بويع بالخلافة .

وهذه البرقية جعلت شريف مكة - المتردد بين رأي ابنه فيصل ، الذي لم يكن يريد الخروج على دولة الخلافة ، وبين رأي ولده عبد الله الذي كان يجنح الى المشي في صف الحلفاء - يميـــل الى رأي عبد الله . وكان الحافز له على ذلك ايضاً وضع الحجاز الاقتصادي خلال الحرب ، ذلك بان الحجاز كان بلداً فقيراً يعيش من موارد الحج ومن العطايا ، ويستورد كل حاجاته من الخارج . واذا نشبت الحرب لا يبقى له مورد ، ولا اتصال بالبلاد الأخرى طالما أن البحر الأحمر ينفرد فيه الاسطول الانكليزي . ومع ذلك فان الشريف حسين ظل يتظاهر بالولاء لتركيا بينما كانت انكلترا تبـــذل ما في وسعها لتفادي مخاطر دعوة خليفة المسلمين الى الجهاد . هذا ، ولما نشبت الحرب واشتركت فيها تركيا مع المحور طلب جمال باشا من الشريف حسين اعلان الجهاد ، وان يرسل له راية الرسول الى دمشق ، فارسل الراية ، ووعد باعلان الجهاد . ولكن هذا الوعد لم يرض جمال باشا ، بل جعـــله يرتاب في اخلاصه . فامر وهيب بك بمكة سراً أن يعزله ، ولكن هذا الأمر وقع صدفة في يد الشريف ، فسلك سبيل الحذر ، وأخذ يفكر في الثورة تفكيراً جدياً .

وفي كانون الثاني ١٩١٥ تولى هنري مكماهون عمله في القاهرة ، وشرع يعمل جاهداً لاستمالة العرب في كل مكان . ومنذ ٣٠ آب ١٩١٥ الى ١٨ شباط ١٩١٦ تبودلت الرسائل بينه وبين شريف مكة ، وبذلت الوعود الانكليزية للعرب عامة والعهود للشريف حسين خاصة . وقد اطلعني جلالته عليها عندما زرته في منفاه بقبرص سنة ١٩٢٩ وكانت مرصوفة في كيس من الكتان . ولما طلبت

منه أن يأذن لي بترتيبها في اطار مذكرات له قال لي « اتركها على بركات الله» .

هذا وفي سنة ١٩١٥ زار الأمير فيصل بن الحسين دمشق وهو في طريقه الى العاصمة ، لحضور مجلس المبعوثان . وهناك اجتمع باعضاء « جمعية العهد» المؤلفة من العسكريين ، وباعضاء جمعية «العربية الفتاة» ودخل في هذه الجمعية . وافشى للجمعيتين رسالة كتشنر التي أتيت على ذكرها . ولما عاد الى دمشق في أواخر أيار من ذلك العـــام وجد زملاءه في الجمعيتين ، الذين كانوا مترددين على صعيد الخروج على تركيا خوفاً من الأجانب ، وجدهم قد اجمعوا رأيهم على خطة للعمل مدارها اعتراف لندن باستقلال البلاد العربية والاتفاق معها على مخطط حربي على أن يكون لهـــا فيما بعد الافضلية في المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية المستقلة . وكان هذا الميثـــاق بمثابة الأساس لمطالب الشريف حسين في مراسلاته مع مكماهون . ثم لما علم امير مكة بأن قوة عسكرية عثمانية زحفت إلى اليمن بطريق الحجاز ، وادرك أن الغاية منها الحجاز - لا اليمن - فكر جدياً في التعجيل بالثورة ، خصوصاً لما أخبره ابنه فيصل ، الذي كان لايزال موجوداً بدمشق ، أن جمال باشا رفض شفاعته بالقافلة الاولى من المحكومين ، والتماسه ابدال حكم الاعدام بغيره ، وساقهم في آب ١٩١٥ الى المشانق . ولكن شريف مكة كظم غيظه ، وظل يتظاهر بأنه على أهبة ارسال النجدة العسكرية للجيش العثماني ، التي كان طلبها جمال باشا على انتظار عودة ابنه فيصل .

وبعد أيام قليلة ، من إعدام جمال باشا «القافلة الأولى من الشهداء» ، تلقى فيصل أمر أبيه بالعودة الى مكة . فجاء الى جمال باشا واوهمه بأن والده قد جمع الجنود في المدينة ، وهم على أهبة الزحف في اتجاه دمشق . وتساءل امامه عما اذا كان يستحسن الباشا أن يكون على رأس هذه الحملة أحد أبناء الشريف ، فوافق

جمال باشا على هذا الرأي، واقترح على فيصل أن يذهب ويتولى قيادتها. وقد وصل الأمير فيصل الى المدينة قبل أن تدركها الحملة التركية المتجهة الى اليمن . وحينئذ أعلن الشريف حسين الثورة في المدينة يوم ٥ حزيران ١٩١٦ لمجابهة هذه الحملة، بينما ارجأ اعلان الثورة في مكة الى اليوم العاشر من هذا الشهر . وهناك رواية اخرى - غير هذه التي ذكرها جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) - سمعتها من الامير سعيد الجزائري ، واعتمدت عليها في كتابي (العهد المخضرم في سوريا ولبنان) . ولكن الروايتين - وان اختلفتا في الصيغة - تتفقـــان على صعيد نجاح الحيلة ، ونشوب الثورة .

وقد مشى شريف مكة منذ ذلك الحين في صف الحلفاء، وانضم اليه لفيف من احرار العرب فأبلوا بلاء حسناً في الحرب العالمية الأولى، وكان لهم الفضل الكبير في احراز النصر على ما نوه بذلك المؤرخون وبعض الساسة الانكليز .

الحكومة الشريفية في بيروت :

صباح اول تشرين الاول ١٩١٨ دخلت مفرزة من الخيالة الانكليز دمشق، تصحبها ثلة من الجيش العربي على رأسهـــا الشريف ناصر بن راضي ونوري باشا الشعلان شيخ مشايخ عنزة . وبعد مضي يومين دخلها الفيلد مارشال اللنبي القائد الاعلى للحملة، التي اسموها الحملة المصرية للتغرير بالعرب وفي ١٠ تشرين المذكور جاءها الامير فيصل بن الحسين على رأس قوة من الخيالة يناهز عددهم الألفين . وقبل انتهاء هذا الشهر تم احتلال سائر سوريا وسط فرح عظيم لا يستطيع القلم وصفه ، فرح لا يعود الى هذا الاحتلال فحسب ، وانما يرجع ايضاً الى الآمال الكبيرة التي كان يعقدها العرب على وعود حلفائهم المنتصرين .

وقبل جلاء الاتراك عن دمشق كان الامير سعيد الجزائري قد استلم زمام الحكم باسم الحكومة العربية ، وذلك بتفويض من الشريف ناصر بن راضي المشار اليه ، ريثما يصل الامير فيصل . فابرق الامير سعيد في ٧ تشرين الاول الى رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق لاستلام الحكم من الاتراك باسم ملك العرب الشريف حسين . وكان هؤلاء قد فُتّ في عضدهم بعد سقوط دمشق ، فلم يجد عمر بك صعوبة في اقناع المسؤولين منهم بالانسحاب . وسرعان ما سلم اسماعيل حقي بك - والي ولاية بيروت - رئيس بلدية بيروت بلاغاً موجهاً الى مأموري الولاية يبلغهم فيه ، بناء على اعلان الحكومة العربية ، ان وظائفهم أصبحت منتهية . وعلى أثر ذلك خف المجلس البلدي - بالاتفاق مع بعض اعيان الثغر - الى تشكيل جهاز الحكم .

فاختاروا احمد مختار بيهم مديراً للامن العام بدلاً عن قومندان الجندرمة والبوليس على ان يكون كل من جان فريج وسليم الطيارة معاونين له ، وعينوا حسن قرنفل ونسيم مطر مديرين للاعاشة . واحتفظ عمر الداعوق لنفسه بادارة المؤسسات الخيرية لمساعدة المحتاجين ، على أن يكون محمد الفاخوري ويوسف عودة معاونين له . وأما بقية الموظفين فيبقى كل منهم في منصبه الى اشعار آخر . وقد نشرت هذه الحكومة الموقتة بلاغا الى الشعب وزعته على الصحف ، ولكن اكثرها لم ينشره بسبب تشتت الاهواء ، او حذرا من العواقب . وقد اختتم البيان المذكور ببند سابع هذا نصه : « بما ان المأمورين من الاتراك وعيالهم ، وسائر الغرباء ، هم وديعة عندنا فيجب على كل فرد تمام الاعتناء برفاهيتهم وراحتهم كما تقتضيه الشهامة العربية » .

وبعد اسبوع من ذلك جاء الى بيروت شكري باشا الايوبي بطريق

طبريا بأمر من الامير فيصل ورفع راية الشريف حسين على سارية السراي الكبير وسط حماس الجماهير وتصفيقهم ، ولكن القيادة العسكرية سرعان ما اعترضته استناداً الى معاهدة سايكس – بيكو بين الانكليز والفرنسيين التي تمنح هؤلاء السيطرة على سوريا ولبنان . وفي صباح ١٨ تشرين الاول ١٩١٨ احاطت مفرزة من الجيش الفرنسي الفندق الذي كان ينزل فيه شكري باشا، ومنعته من مغادرته، بينما ساق الفرنسيون مفرزة اخرى بقيادة الكولونيل بياباب انزلت العلم العربي عن السراي الكبير . وكان من الطبيعي وقوع ازمة عقب ذلك بين حكومة دمشق وحكومة بيروت العسكرية الفرنسية ، انتهت بالاتفاق على ان ينسحب شكري باشا من بيروت وان يبقى فيها مرافقه جميل بك الالشي بصفته رئيساً ل « دار الاعتماد العربية » .. وكان هذا الحل بموافقة الانكليز ، فلم يرتح له الجانب العربي . وبدأت الشكوك تساوره منهم ، ومنذ ذلك استلم الفرنسيون زمام الحكم على بلاد كانت تسمى بلاد العدو المحتلة .

الاتفاقات السرية بين الحلفاء ومضاعفاتها :

بينما كان العرب يحاربون باخلاص دولة الخلافة الى جانب الحلفاء ، نشبت الثورة الشيوعية في روسيا . ولما انتصرت واستلم زعماؤها زمام الحكم سنة سنة ١٩١٧ نشر هؤلاء جميع المعاهدات السرية التي سبق لحكومات القياصرة ان عقدوها ، او كانوا طرفاً آخر فيها . وكان بين هذه الوثائق معاهدة سايكس – بيكو بين الانكليز والفرنسيين سنة ١٩١٦ التي اتفق فيها هؤلاء وهؤلاء على اقتسام تركة السلطنة العثمانية في الشرق الأوسط بعد الحرب ، واحراز النصر ، ولما علم بها الشريف حسين بواسطة الأتراك سارع الى الكتابة للسير مكماهون

يستوضحه حقيقة الخبر . فاكد له هذا : « ان الانكليز لايزالون على عهدهم له ، وانهم مصممون على اعلان الحرية للعرب والوحدة العربية ، وان هذه الاشاعات ان هي الا اكاذيب لفقها الترك لالقاء الشكوك والاختلافات بين القوى المتحالفة والعرب الذين يجاهدون بشرف من اجل استرجاع حريتهم القديمة . »

وكان الامير فيصل في ذلك الوقت يحارب مع اللنبي في اتجاه بلاد الشام، ولما اتصلت به هذه الاشاعة بعث اليه باحتجاج شديد اللهجة اعلن فيه انه لن يستطيع كبح جماح القوات العربية الا اذا صدر فوراً تحديد رسمي لنوايا الحلفاء . فخفت لندن وباريس في اعقاب هذا الاحتجاج ، الى اصدار تصريحات نفت فيها هذه الشائعات مؤكدة للعرب مرة اخرى حقهم في اختيار مصيرهم بعد الحرب . ولكن الوقائع لم تلبث ان كشفت النقاب عن صحة تلك الشائعات ، وعن خداع وتضليل الدولتين للعرب . فلما احتلت الحملة المصرية بقيادة اللنبي بلاد الشام داخلها وساحلها، دخلت هذا القطر باسم بلاد العدو المحتلة . ولكن لما تقررت الهدنة بين الحلفاء وتركيا في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨، تقاسم الانكليز والفرنسيون احتلال بلاد الشام وغيرها وفقاً لمعاهدة سايكس - بيكو المذكورة ، فكان من نصيب الانكليز فلسطين والعراق ، ومن نصيب فرنسا ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان وكيليكيا . واما المنطقة الشرقية من سوريا - أي ولايتا دمشق وحلب - فقد ظل الجيش العربي يحتلها بانتظار القرار الدولي بشأن الانتداب ، وكان من عواقب تقسيم بلاد الشام على هذا الوجه بروز الاحتكاك بين الحكومة العربية بدمشق وبين حكومة الفرنسيين في بيروت ، ولا سيما بعد انسحاب الجيش الانكليزي في ٥ شباط ١٩١٩ من البلدين، وانقلب هذا الاحتكاك الى ثورات هنا وهناك ضد الاحتلال الفرنسي .

وكان من عواقب هذا التقسيم ايضاً بروز انقسام داخلي في بيروت ولبنان وسائر المناطق المحتلة من الفرنسيين في الساحل : فبينما كانت كثرة اهالي ولاية بيروت تطالب بالوحدة السورية بشدة ، كانت كثرة أهالي لبنان ترفض بقوة اي انضمام الى البلاد العربية ، وتطالب بالحماية الفرنسية وبمعاونة فرنسا . ومن اجل ذلك انتدب وقتئذ مجلس ادارة متصرفية لبنان وفداً منه للذهاب الى باريس ، كما ان البطريرك الياس الحويك خف ايضاً اليها على رأس وفد آخر في صيف ١٩١٩ ، ثم قدم الى مؤتمر الصلح في ٢٥ تشرين الاول من من ذاك العام مذكرة طالب فيها باسم اللبنانيين جميعاً باستقلال لبنان تحت حماية فرنسا ، واعادة الكيان اللبناني الى حدوده التاريخية . وفي الاسباب الموجبة لهذا الطلب ، اشار غبطة البطريرك الماروني الى الابعاد القائمة بين لبنان والبلاد العربية في التاريخ ، كما اشار الى الفارق الكبير بين مستواهما الاجتماعي في الحاضر .

مؤتمر الصلح ولجنة كينج — كراين :

لما عقد مؤتمر الصلح في باريس لبى الامير فيصل دعوة ابيه ، وذهب الى العاصمة الفرنسية لتمثيله في هذا المؤتمر . وكان يتكلم هناك باسم الاحزاب السورية في الداخل والساحل . وقد لفت انظار المؤتمرين بزيه العربي ، وبمناقشته القضايا مناقشة خبير عليم على اساس حق الشعوب في تقرير مصيرها، هذا المبدأ الذي كان يدعو اليه الرئيس الامريكي الدكتور ويلسن . وقدم مذكرة الى المؤتمر في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩ ، حدد فيها بايجاز حق العرب في الاستقلال التام .

ولكن الفئة الموالية لفرنسا من اللبنانيين كبر عليها تكلم فيصل باسم سوريا داخلها وساحلها فتصدت له ، ونددت به . وقد بعث الاستاذ شكري غانم

رئيس الجمعية السورية اللبنانية في باريس كتاباً مؤرخاً في ١٤ حزيران ١٩١٩ الى جورج كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح احتج فيه على تصريحات فيصل ، تلك التصريحات التي تشير الى ان الاحزاب السورية كلها قد ناطت به امر الدفاع عن مصالحها .

فهذا وذاك ، جعل مؤتمر الصلح يحتاج الى تقصي الحقائق في بلاد الشام نفسها. وبناء على اقتراح الرئيس ويلسن، قرر المؤتمر ارسال لجنة من الدول الاربع اليها للاسترشاد برغبات اهلها . ولكن هذا القرار ذهب ادراج الرياح بسبب معارضة فرنسا الشديدة له ، مما جعل الرئيس ويلسن يقتصر على ارسال لجنة امريكية الى بلاد الشام للاستفتاء عرفت بلجنة كينج - كراين .

وقد وصلت هذه اللجنة الى يافا في العاشر من حزيران ١٩١٩ . وبعد ان قامت بمهمتها في سوريا ولبنان وفلسطين عادت الى باريس في ٢٨ آب ١٩١٩ ، وسلمت نسخة من تقريرها الى سكرتيرية وفد الولايات المتحدة الامريكية في مؤتمر الصلح . وقد استهلت اللجنة هذا التقرير بالتنويه برغبة كثرة بلاد الشام في الاستقلال الناجز . ولما تحدثت عن الانتداب قالت : « فقد وجدت اللجنة ان جماع الرأي في سوريا يرفض الانتداب ، ويميل بقوة الى المعونة على شرط ان تجيء من الولايات المتحدة ، وان لم يتيسر ذلك فلتكن من بريطانيا . ولكن ليس من فرنسا على أي حال » . وختمت اللجنة تقريرها بما يلي : « اذا كانت فرنسا تتشبث بما لهـا من المصالح في سوريا تشبثاً لاتبالي معه بالعلاقات الودية بين الحلفاء ، فمن الممكن اعطاؤها وصاية على لبنان ، كما ترغب جماعة كبيرة من اهله » .

المؤتمر السوري في دمشق :

رغبة من الامير فيصل وحكومته في ان تجعلا لجنة كينج - كراين امام الامر الواقع ، دعت حكومة دمشق السوريين في الداخل والساحل وفي فلسطين الى مؤتمر يعقد في العاصمة يعهد اليه تحديد مطالب هذه الاقاليم في نطاق تقرير المصير . وقد عقد هذا المؤتمر في ٢ تموز ١٩١٩ . وافتتحه الامير فيصل بكلمة بين فيها اسباب هذه الدعوة . وقال : « ان مهمة المؤتمر تمثيل الامة السورية امام لجنة كينج - كراين » . ثم وضع قانون اساسي بمثابة دستور البلاد .

وفي ذلك الوقت كان الفرنسيون يستعدون كذلك لاستقبال اللجنة المذكورة فيبذلون الاموال بسخاء ، ويرسلون الوعود البراقة للافراد والجماعات في سبيل تأمين المزيد من المؤيدين لهم . وقد وقعوا في ذعر حينما بلغهم خبر المؤتمر السوري ، ولا سيما حينما علموا بان الدعوة اليه شملت لبنان . وفي ذعرهم هذا حاولوا ، بالترهيب والترغيب ، ان لا يتمثل الساحل السوري في هذا المؤتمر . ولكنهم لم يوفقوا اذ اجتمع المنتخبون الثانويون ، الذين انتخبوا في عهد آل عثمان ، وانتخبوا في ٢٣ تموز ١٩١٩ بالطريقة السرية اعضاء بيروت للمؤتمر السوري وكنت واحداً من الفائزين . وقد ذهبنا الى دمشق واشتركنا في جلسات المؤتمر في ذلك الوقت وبعده ، ثم حوسبنا على ذلك من قبل الفرنسيين بعد ان تقرر انتدابهم على سوريا ولبنان ، ولكن نفراً منا خشوا من هذا الحساب فغادروا دمشق ثم لم يعودوا الى لبنان الا بعد الاستقلال . وكان المرحوم توفيق باشا مفرج واحداً منهم .

المساومات بين لندن وباريس وانعكاساتها على بلاد الشام :

بينما كان الأمير فيصل يعتبر نفسه نائباً عن والده ملك العرب في دمشق، ويتصرف تصرف صاحب الحق بناء على الوعود والتصريحات التي ادلى بها المسؤولون خلال الحرب في لندن وباريس ، كانت فرنسا ومعها انكلترا تعتبر قائداً للجيش العربي الملحق بالحملة التي كانت بقيادة اللنبي . ومن جراء هذا التناقض في الاعتبارات، برزت الاختلافات بين باريس ودمشق خلال عام كامل ، أي منذ تشرين الأول ١٩١٩ .

وخلال ذلك كانت انكلترا – وهي تساوم على الموصل – تقف موقفاً متأرجحاً وتتخذ من سوريا مطية لادراك مطامعها . ولكنها لما تفاهمت مع باريس قلبت ظهر المجن لفيصل وابرق لويد جورج له في شهر آب ١٩١٩ يدعوه الى زيارة لندن مرة أخرى . وفي أول مقابلة بينهما اطلعه على ما تم بين الدولتين من الاتفاق القاضي باحتلال الفرنسيين كل الساحل السوري . وبجلاء الجيش البريطاني عنه ، وضغط عليه الذهاب الى باريس ، وللدخول في مفاوضات مباشرة مع الرئيس كلمنصو . وحينئذ ادرك فيصل ان الاعتماد على لندن بات عديم الجدوى. وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩ بدأت المفاوضات في باريس بين الأمير فيصل وبين كليمنصو وانتهت – في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ – بالاتفاق على اعتراف فرنسا بالدولة العربية السورية على أن تتوجه الى فرنسا وحدها من أجل أية معونة تحتاج اليها ، وذلك لقاء اعتراف هذه الدولة العربية باحتلال فرنسا للبنان والساحل السوري . أما منطقة البقاع فتبقى محايدة تفصل بين البلدين . وفضلاً عن ذلك

فقد تفاهم الزعيمان على ان يبقى هذا الاتفاق في حيز الكتمان ريثما يعود الامير فيصل الى باريس مزوداً بموافقة حكومته على هذا الاتفاق ، وحينئذ يتم التوقيع عليه من الفريقين ، ويقدم الى مؤتمر الصلح. ولكن كل ذلك ذهب ادراج الرياح، لأن الأمير فيصل ما ان رجع الى عاصمة بلاده بعد غياب أربعة أشهر حتى شعر بثقل العبء الذي أخذه على عاتقه إذ وجد نفسه أمام شعب هائج لا يرضى إلا بالاستقلال التام ، وهو مهيأ للثورة إذا فوجىء بهذا الاتفاق . وحينئذ لم يسعه إلا أن يضرب صفحاً عن التصريح للسوريين بهذا الاتفاق ، وان يمشي مع التيار الجارف فيعود الى المطالبة بما كان يطالب به قبلا ، ولاسيما الوحدة السورية .

وفي ٣ آذار ١٩٢٠ دعا الأمير فيصل المؤتمر السوري للاجتماع . وافتتحه بخطاب استعرض فيه مجرى القضية العربية ، وختمه بقوله : « فدولتنا الجديدة التي قام اساسها على وطنية ابنائها الكرام ، هي في حاجة اليوم إلى تعزيز شكلها ووضع دستور لها » .

وبناء على ذلك اجتمع المؤتمر السوري بعد خمسة أيام كرة أخرى ، وأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، وبايع الامير المشار اليه ملكاً عليها . وقد كنت حينما وقعت هذا القرار أعقد عليه كبار الآمال أسوة بالآخرين ظناً مني أن الحق لابد وان ينتصر . وشاركت الشعب في افراحه التي كانت مشفوعة بالاعتذار . وهذا الفرح الشامل لا يستطيع قلبي أن يصفه ، ولذلك فاني استعيد كلمة قالها عنه الاستاذ جبران متى في كتابه الفرنسي (الانتداب) :

« فالذين زاروا دمشق خلال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ قدر لهم أن يروا في الاجتماعات والاندية ، وان يسمعوا في الخطب واذاعات الاحزاب أشياء تنم عن

غليان سياسي عام يعتبر من الأمور الخارقة التي تشبه ما يعقب الثورات الحرة الكبرى . وقد ذهب بعضهم الى تشبيه دمشق وقتئذ بفرنسا سنة ١٧٨٩ » .

ولكن هذا الفرح كان سحابة صيف لم يلبث أن تبددت معه النشوة ، والآمال .

خروج الملك فيصل من دمشق :

أعلنت لندن وباريس أنهما لاتعترفان بما قرره المؤتمر السوري ، وقد عبرت فرنسا عن استنكارها لهذا القرار بمحاولة قام بها الجنرال غورو لمنع خطباء المساجد في لبنان من الدعوة للملك فيصل ، وبانزاله العلم السوري عن دار المعتمد العربي في بيروت .

ثم ما ان عقد مؤتمر سان ريمو في ٢٢ نيسان ١٩٢٠ ، ومنح فرنسا الانتداب على كل من سورية ولبنان ، حتى خف مسيو ميلران رئيس الوزارة الفرنسية الى توجيه بلاغ مؤرخ في أول مايس الى الملك فيصل ينبؤه فيه بوضع سورية تحت الانتداب . ولكن الملك فيصل ، الذي استنكر هذا القرار ، رد ببرقية شديدة اللهجة أعلن فيها رفض بلاده الانتداب ، ورافق ذلك نشوب ثورات متعددة في أطراف سورية الجنوبية والشمالية ، واستعداد من قبل الحكومة العربية للدفاع عن كيانها .

أما وقد جد الجد فان باريس رضيت بعقد هدنة مع مصطفى كمال لم تكن متلائمة مع كرامتها وتخلت له عن كيليكيا ، كما كانت قد تخلت لانكلترا عن الموصل ، ثم شمرت عن ساعدها للتفرغ لمجابهة الوضع في سورية .

ولما اراد الملك فيصل ان يذهب الى لندن والى مؤتمر الصلح – لتفادي الحرب – منعه الجنرال غورو من السفر ، إلى أن يعترف ، قبل ركوب البحر ، بالانتداب الفرنسي ، وان يعيد الجيش السوري الى ما كان عليه في شهر شباط . وعندما تردد الملك فيصل في قبول هذين الشرطين والاذعان للبلاغ الذي ارسله غورو له في ٢٠ تموز ١٩٢٠ زحف الجيش الفرنسي على دمشق واحتلها في ٢٥ تموز ١٩٢٠ . وكان ما كان بعد ذلك من تجريد الملك من السلطة ، وحل الجيش السوري ، ووضع غرامة على سورية فضلاً عن مغادرة فيصل دمشق . وبذلك ختمت حياة دولة علق العرب عليها الآمال . ولكن تذوق السوريين لذة الحكم ، خلال سنتين ، خلف في قلوبهم شغفاً بالاستقلال استهانوا في سبيله الموت في سبيل الحياة . فكان لهم من بعد ما أرادوا عندما استعادوا استقلالهم . ولابدع فمن جد وجد ، ولكل مجتهد نصيب .

وبعد ، فهذه قصة العرب مع حلفائهم في مطلع القرن العشرين ، وهي قصة مؤلمة جديرة بان تكون لنا عبرة وذكرى ونحن على عتبة توديع القرن المذكور ، فلا نتكل من بعد إلا على انفسنا ، ولا نعتمد إلا على تضامننا . ويد الله مع الجماعة .

المقاومة الفلسطينية

كيف فرضت وجودها (١)

محمد ابراهيم سليمان،
القاهرة.

تنبهت الجماهير العربية في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ على البيان العسكري الأول الذي صدر عن القيادة العامة لقوات «العاصفة» - الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» - والذي يقول: «اتكالاً منا على الله، وإيماناً منا بحق شعبنا في الكفاح لاسترداد وطنه المغتصب، وإيماناً منا بواجب الجهاد المقدس ... لذلك فقد تحركت أجنحة من قواتنا الضاربة في ليلة الجمعة ١٩٦٤/١٢/٣١ وقامت بتنفيذ العمليات المطلوبة منها كاملة ضمن الأرض المحتلة. وعادت جميعها إلى معسكراتها سالمة ...»

---

(١) يعبر هذا المقال عن وجهة نظر «بعض» المنظمات الثورية الفلسطينية. والمعرفة تفتح صفحاتها لوجهات النظر الأخرى، وترحب بكل حوار ينير طريق الثورة الفلسطينية ويسهم في تعزيز وحدتها وقوتها. «المعرفة»

ولقد كانت هذه العملية تمثل الشرارة الأولى للثورة الفلسطينية المسلحة، وتمثل بداية مرحلة فاصلة في تاريخ الشعب الفلسطيني . فلقد أسقط من حسابه – منذ ذلك اليوم – كل الحلول الأخرى للمشكلة الفلسطينية ، وبقيت أمامه الثورة المسلحة الحل الحتمي والوحيد !!

وكأي ثورة شعبية مسلحة تبدأ بطليعة قليلة مؤمنة ، تقوم بعمليات صغيرة متفرقة ، ثم سرعان ما تلتحم الجماهير بطليعتها المناضلة ، فتزداد العمليات قوة واتساعاً ، وتفرض الثورة المسلحة وجودها المادي والمعنوي على القوى المحيطة بها كافة . ولقد استطاعت طليعة الثورة الفلسطينية أن تلتحم بقاعدتها الشعبية وأن تفرض وجودها على مختلف الدوائر المحيطة بها : دائرة الشعب الفلسطيني ، ودائرة الأمة العربية ، والدائرة العالمية ، ثم أهم هذه الدوائر وهي دائرة المواجهة مع العدو الاسرائيلي .

على أن هذه الطليعة الفدائية تمر عادة بعدة مراحل من التصعيد المستمر لعملياتها حتى تصل في النهاية الى مرحلة حرب التحرير الشعبية أو المواجهة الحاسمة مع المستعمر ، والتي تنتهي بتحقيق النصر النهائي . وهناك مراحل أربع بارزة في هذا الطريق :

١ – مرحلة تكوين الأجهزة السرية وتنظيم القواعد السياسية : وقد بدأت المقاومة الفلسطينية هذه المرحلة منذ ١٩٥٦ ، وذلك في قطاع غزة أثناء الاحتلال الاسرائيلي له والذي دام عدة شهور . فهناك تشكلت النواة الأصلية لزعماء منظمة « فتح » ، وكانت تتألف أساساً من الطلبة والمثقفين الذين أخذوا يدركون شيئاً فشيئاً أن على الفلسطينيين أن يتولوا بأنفسهم عبء الدفاع عن قضيتهم . وعلى الرغم من التقدم البطيء الذي صحب هذه الحركة ، فقد كان هناك

حدثان هامان عجلا بانشاء منظمة عسكرية لبدء العمليات الحربية وهما : استقلال الجزائر بعد كفاح بطولي مسلح سنة ١٩٦٢ ، ثم بداية الثورة الفيتنامية في فرض وجودها على الرأي العام العالمي . ومنذ سنة ١٩٦٢ بدأت « فتح » تركز جهودها لاقامة منظمة عسكرية ، حتى خرجت الى الوجود بجناحها العسكري المتمثل في قوات « العاصفة » ، وانتهت هذه المرحلة باعلان الثورة المسلحة في أول كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٥ .

٢ – مرحلة الاعلان عن الثورة وبداية العمليات العسكرية، وهي وإن كانت صغيرة ومحدودة الأثر فإن تأثيرها المعنوي كبير . فهي تعنى نهاية لعهد الرضوخ والاستسلام ، وبداية لطريق جديد سبيلاً الى النصر . وقد استمرت هذه المرحلة منذ إعلان الثورة المسلحة حتى معركة الكرامة في ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٦٨ ؛ والتي تمثل علامة بارزة على طريق الكفاح الفلسطيني المسلح .

٣ – أما المرحلة الثالثة فتتضمن تعميماً للعمليات العسكرية وتوسيعاً لنطاق النشاط السياسي . وقد بدأت بمعركة الكرامة التي قامت فيها القوات الاسرائيلية – تحميها الطائرات المقاتلة – باجتياز نهر الأردن ، فتصدى لها الفدائيون وصمدوا في قتال مرير لمدة ١٢ ساعة كاملة ، كبدوا فيها القوات الاسرائيلية خسائر كبيرة ، وأرغموها على الانسحاب بعد أن تركت وراءها عدداً من الدبابات في أرض المعركة . ولقد كانت هذه المعركة نقطة تحول حاسمة في حرب المقاومة، فقد أثبت فيها الفدائيون قدرتهم على حرب اسرائيل – المزهوة بانتصارها في حرب سنة ١٩٦٧ – بغير دبابات أو طائرات .

وقد أعقب هذه المعركة اتساع كبير في نشاط المقاومة ، وتضاعف عدد المنضمين الى صفوفها حتى أصبح الآن يجاوز الثلاثين الفاً من المناضلين حسب

الكثير من التقديرات . واتسعت نوعية المقاتل الفلسطيني، فبدلاً من اقتصارها على فئة المثقفين ، امتدت لتشمل جماهير العمال والفلاحين الى جانب المثقفين الوطنيين ، أي انها شملت اكثر القوى الاجتماعية تضحية وفداء . وشهد العمل الفدائي الفلسطيني تطوراً ملحوظاً في مستوى التدريب ، فقد انتقل من المستوى البدائي الى مستوى الوحدات والتشكيلات المقاتلة . وبدلاً من استخدام البنادق والرشاشات الخفيفة ، وصل الى مرحلة استخدام الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات .

وعن تصاعد العمليات خلال هذه المرحلة ، تشير احصاءات فتح إلى أنها قامت بـ ١٤٨ عملية سنة ١٩٦٥ ، ٥٥ عملية سنة ١٩٦٦ ، ١٤٦ عملية سنة ١٩٦٧ ، ٦٧٦ عملية سنة ١٩٦٨ ، ثم ارتفع عدد العمليات سنة ١٩٦٩ فبلغ متوسطها من ٩٠ - ١٠٠ عملية شهرياً هاجمت خلالها المستعمرات والأماكن الاستراتيجية واسقطت الطائرات واشتبكت في معارك مع العدو .

وتشير وثائق منظمات المقاومة الى أن جملة خسائر اسرائيل حتى نهاية سنة ١٩٦٨ بلغت ٨٧٤١ قتيلاً وجريحاً ، مع تدمير وإعطاب ١٢٣٠ سيارة ودبابة ، ٢١ طائرة ، ١٦ قطاراً ومئات المخافر والمحطات اللاسلكية ومحطات الوقود ومستودعات الذخيرة والمصانع . وإذا علمنا أن هذا الحصر لعدد القتلى والمصابين اقتصر على البيانات التي ورد فيها العدد ، وأن الكثير من بيانات المقاومة لا تذكر العدد، اتضح لنا أن العدد الحقيقي اكبر من هذا بكثير .

ويمثل عام ١٩٦٩ تحولاً كبيراً في أعمال المقاومة ، وخاصة بعد انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني الخامس بالقاهرة في اوائل شباط (فبراير) من هذا العام . فلقد أعطى المؤتمر رئاسة منظمة تحرير فلسطين لفتح ، وبذا تصدت العناصر الثورية

لمسؤولية القيادة في العمل الفلسطيني بأجمعه . وقد وضع هذا المؤتمر أيضاً النواة الأولى للوحدة بين منظمات المقاومة ،وقد تمثل ذلك في اندماج بعض هذه المنظمات في ساحة القتال وهي : قوات العاصفة ، وقوات الصاعقة ، وجيش التحرير الفلسطيني بقواته الثلاث : حطين وعين جالوت والقادسية ، وذلك في تشكيل مقاتل واحد هو ما يعرف باسم « قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني » . ثم توالى انضمام بقية المنظمات الفدائية ، حتى انضمت اخيراً الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبانضمامها أصبحت قيادة الكفاح المسلح تضم جميع منظمات المقاومة الفلسطينية الرئيسية .

ولقد استطاع ذلك أن يقفز بالعمليات الفدائية الى مستوى لم تشهده من قبل ، ففي تصريح لياسر عرفات - المتحدث الرسمي باسم « فتح » ورئيس منظمة تحرير فلسطين - أعلن أن القوات التابعة لقيادة الكفاح المسلح الفلسطيني قامت بـ ٤٨٠ عملية ضد مواقع العدو خلال شهر واحد هو أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٦٩ ؛بلغت خسائر اسرائيل في هذه العمليات ٣٠٠ قتيل بمعدل ١٠ قتلى يومياً .

وقد نفذت قوات العاصفة وحدها ٢١٣٠ عملية خلال عام ١٩٦٩ . كان أبرزها : عملية «القسام» في ليلة ٢ أيار (مايو) ١٩٦٩ حيث تم اقتحام الحمة والسيطرة عليها لمدة ثلاث ساعات . وعملية « رأس الحربة » التي تم فيها احتلال مخفر السوية ليلة ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٦٩ . أما عملية « الحزام الأخضر » فقد تم فيهما اقتحام ثلاث مستعمرات وثلاثة مواقع على امتداد جبهة طولها ٧ كيلو مترات في ٨ آب (أغسطس) ١٩٦٩ .

وهناك تطور آخر حدث في هذه المرحلة ، فلم يقتصر العمل الفدائي على الأراضي المحتلة بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ولكنه وصل الى أعماق الأرض الفلسطينية

المحتلة منذ ١٩٤٨ ، وقام بضربات مؤثرة في قلب اسرائيل مثل تفجير أنابيب البترول في حيفا ، وخطوط الكهرباء في أيلات ، ومحطة الأوتوبيس في تل أبيب ، وانفجار مصيف الطنطورة على طريق حيفا ـ تل أبيب . وإذا كان لهذه العمليات من مغزى فهي تدل على وحدة التراب الفلسطيني ميداناً لنضال رجال المقاومة ، وأنها رفض لمحاولات اسرائيل الفصل بين الأراضي المحتلة في حزيران (يونيو) وتلك التي تم احتلالها منذ عام ١٩٤٨ .

٤ - وبقي أمام المقاومة الفلسطينية المرحلة الرابعة والأخيرة ، وهي **مرحلة المجابهة** ، حيث تواجه العدو باستراتيجية عسكرية واحدة تشمل جميع المنظمات الفدائية وتنتقل من مرحلة العمليات الفدائية المحدودة الى مرحلة حرب التحرير الشعبية الشاملة . وقد أعلن في أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩ عن تشكيل الجيش الشعبي الفلسطيني ، والذي سيكون من أولى واجباته القيام بهذه المهمة .

الفكر الثوري :

لقد صحب تصاعد العمليات الفدائية تبلور أفي فكر المقاومة الفلسطينية ، وتمثل هذا الفكر أولا في الدعوة التي نادت بها منظمة فتح للتحالف بين جميع طبقات الشعب حتى يتم التحرير ، ورفعت شعار « الأرض لمن يحررها » . ومن هنا عارضت « فتح » - ومعها المنظمات الأخرى - المذاهب الكلاسيكية الجامدة أو الدعوات ذات المضمون الاجتماعي التي تؤدي إلى تفجير الصراع الطبقي . وتنطلق هذه المنظمات في ذلك من مفهوم أن الشعب الفلسطيني قد فقد الأرض ووسائل الانتاج وهما العنصرين الأساسيين لتكوين الطبقات ، ومن هنا كانت الدعوة للوحدة الوطنية أمراً تقتضيه المصلحة العامة بين العمال والفلاحين والمثقفين والرأسماليين . ولقد أدت دعوة التجميع لكل طاقات الشعب بكل طبقاته الى

استقطاب كل القوى الثورية بغض النظر عن انتمائها الاجتماعي ، وأدت بالتالي إلى عزل أصحاب الدعوات الانتهازية والتفاف الجميع حول هدف واحد ، وهو التحرير .

وذهب الفكر الثوري للمقاومة إلى مرحلة أبعد من ذلك حينما طرح شعار « دولة فلسطين الديمقراطية » ، فقد جابه اسرائيل والعالم بموقف ينطوي على الكثير من المضامين الايجابية :

– إزالة الكيان الصهيوني المتمثل في دولة اسرائيل دون أن يعني ذلك القضاء على اليهود في فلسطين .

– من يقبل الحياة في دولة فلسطين من اليهود ، له جميع الحقوق وعليه جميع الواجبات كمواطن عادي في الدولة .

– لاتوجد أية حقوق تاريخية أودينية أو سياسية لليهود في الوجودالقومي بفلسطين ، ومن هنا فإن المقاومة لاتعترف بوجود شعب يهودي ، وإنما أفراد يهود ينتمون إلى دولة فلسطين .

– تجاوب فكر المقاومة الثوري مع الافكار السياسية الحديثة حول مفهوم القومية – والتي ترفض جعل الدين أساسا من أسس الوجود القومي – فهو يرى أن ارتباط اليهود بفلسطين – مثل ارتباط المسلمين والمسيحيين – ارتباط روحي ديني لايعطيها أية حقوق سياسية في الوجود القومي بفلسطين .

– وبالتالي فإن حق الوجود القومي السياسي في فلسطين هو للفلسطينيين وحدهم . وحركة المقاومة هي المعبر والمطالب بهذا الحق . وتكتسب هذه الحركة قوة وشرعية من كونها تتصدى لوجود الكيان الصهيوني الذي اغتصب الحق الشرعي في الوجود السياسي للشعب الفلسطيني .

وهكذا نمت المقاومة الفلسطينية ماديا وفكريا ، وما كان لهذا النمو أن يتم بمعزل عن دائرة الشعب الفلسطيني ـ أقرب الدوائر إلى المقاومة ـ تأثرا وتأثيرا .

الدائرة الفلسطينية :

ليس هناك شك في ان قيام حركة المقاومة كان تجاوزا واعيا لأوضاع الشعب الفلسطيني ، ولقياداته التقليدية ، وتنظيماته الجامدة ، وعدم وجود وحدة سياسية فعلية . إن قيام هذه الحركة كان بمثابة ثورة اجتماعية ، وتبديل في العلاقات الاجتماعية للشعب الفلسطيني ، وخاصة بعد تصدي القوى الثورية الأصيلة لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وبالتالي العمل الفلسطيني ككل . لقد استطاعت المقاومة ان تبعث الكيان الفلسطيني موجوداً وحيا وشريكا في معركة المصير .

ولقد أدى تصاعد عمليات المقاومة الى بروز الثورة الفلسطينية المسلحة حركة تحررية تعبر عن تطلع شعب اغتصب منه وطنه ، ومن هنـــا فهي جديرة بالوقوف في مصاف الثورات العالمية الاخرى مثل ثورة الجزائر وثورة شعب فيتنام . فرجال المقاومة ليسوا مجموعة من « المخربين » أو « الارهابيين » كما يدعي الصهاينة ، ولكنهم جزء من حركة التحرر العالمية المعـــادية للاستعمار والعنصرية . ولم تعد القضية قضية لاجئين كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تصورها . فالقتال اليومي والتصميم على تصعيده ، وما يلازم ذلك من فكر ايجابي متطور قد أعاد فتح قضية فلسطين من الأساس كمشكلة لشعب يناضل في سبيل حقه في الأرض وحقه في الوجود .

وليس هناك شك في ان معركتنا مع اسرائيل هي بالدرجة الاولى معركة

تحدي الانسان للانسان . والانسان بطاقته المتفجرة هو العنصر الفعال في معارك التحرير ، بل انه أعظم أهمية من التفوق التكنولوجي . ولقد استطاعت المقاومة في تلك المــدة القصيرة أن تساهم في خلق الانسان الفلسطيني الجديد القادر على تحمل أعباء معركة طويلة الأمد . استطاعت أن تحول اللاجىء المتشرد المغلوب على أمره ، الى انسان ثائر يملك الإرادة الصلبة والايمان القوي ووضوح الهدف . استطاعت المعارك اليومية للمقاومة أن تعمق في نفوس رجالهــا الشعور بالمسئولية ، واليقظة والمثابرة ، والتعود على الابتكار والابداع لمواجهة الأخطار والتغلب عليها ، واعتماد العــلم والمنطق السليم أساساً للعمل والتحركات . وأخيراً ، لقد اتحدت شخصية الثائر الفلسطيني ، الذي كان من قبل يعاني من انقسام الشخصية بين واقع يقيده وآمال يصبو إليها .

لقد أقامت المقاومة بدلاً من مخيمات اللاجئين — التي تعيش على الصدقة وتنشر مبادىء التحلل الاجتماعي والنفساني ويسيطر عليهــا اليأس والضياع — مراكز للتدريب تبعث في المقاتلين الثقة والأمل في المستقبل ، وتلقنهم مبادىء التضحية والفداء ، ومُثُل البطولة والقيم النبيلة . وأقامت كذلك المعسكرات لإعداد الأشبال ما بين ١٠ — ١٤ سنة إعداداً سياسياً وعسكرياً . وإذا كان تدريب الأشبال يهدف الى بث روح النضال بين الفتيان الصغار ، فإنه يمثل معيناً لا ينضب لتزويد حركة المقاومة بالعناصر الجديدة من الثوار . ولسنا بحاجة الى تأكيد ما لهذه الأعمال من دور في تحويل المجتمع العربي الفلسطيني من مجتمع تقليدي متخلف الى مجتمع عصري ، يأخذ بأساليب الحضارة الحديثة .

لم يقتصر تأثير المقاومة على الرجال المنتمين إليها ، ولكنه امتد ليشمل الجماهير الفلسطينية ويربطها ربطاً واعياً ومنظماً بالثورة . وعمقت المقاومة مفهوم

الثورة ، مما أدى الى تعلق الجماهير بالمقاومـــة . وقدقامت منظمة التحرير الفلسطينية بمسح اجتماعي شامل لمختلف فئات الشعب الفلسطيني لتنظيم الطاقات المتاحة وربطها بالثورة نضالياً ومعيشياً ، سواء كانت هذه الفئات في الأرض المحتلة أم خارجها . ولتحقيق ذلك تم تشكيل : اتحاد العمال الفلسطينيين ، اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، الاتحاد العام لطلبة فلسطين ، اتحاد المرأة الفلسطينية ، وكذلك اتحادات المعلمين والفنانين والمحامين والرياضيين . ولم تهمل منظمات المقاومة التكافل الاجتماعي باعتباره محافظاً على كيان الشعب الفلسطيني ، فأقامت منظمة « فتح » منذ سنة ١٩٦٨ سبع عيادات طبية ، وسبعة مراكز اجتماعية ، يقوم بالخدمة فيهـا متطوعون عرب أكفياء .

وقد برزت أخيراً المشاركة الفعلية للمواطنين الفلسطينيين المقيمين في الأرض المحتلة في النضال مع رجال المقاومة . وقد اعترف بذلك موشي ديان - وزير الدفاع الاسرائيلي - في خطابه ألقاه في مؤتمر الطلاب نشرته صحيفة « ها آرتس » في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٦٨ وفيه يقول : « يجب أن نقول شيئاً حول عمليات فتح في الفترة الأخيرة ، وهو أن هناك نسبة كبيرة من الفلسطينيين ، أي من السكان المحليين ، ومن أبناء العائلات الطيبة ، تشترك في هذه العمليات ، وهذا يحتوي على مغزى غير إيجابي بالنسبة لنا » .

الدائرة العربية :

بينما كانت الأمة العربية تعاني من آثار النكسة ، خرجت المقاومـــة الفلسطينية بعملياتها الجريئة - في أحلك الظروف - لتبعث الأمل من جديد في قلوب الملايين من العرب ، ولتعيد الى الأمة العربية كرامتها المهدورة وثقتها

بنفسها . وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن ذلك في خطابه الافتتاحي للدورة الخامسة للمجلس الوطني الفلسطيني في أول شباط (فبراير) سنة ١٩٦٩ بقوله: « إن المقاومة المسلحة أوضحت للعالم كله أن احتلال الأرض شيء يختلف اختلافاً كبيراً عن تحطيم الإرادة واحتلال الروح » . فالمقاومة ساهمت بقسط كبير في موقف الصمود الذي وقفه العالم العربي ، في وقت كثرت فيه الضغوط النفسية والمادية، لتفرض عليه الاستسلام الى الأبد .

وتعتبر حركة المقاومة نقطة البداية لثورة عربية شاملة ، وأداة التفجير للقوى الثورية العربية عامة . فهي جزء من حركة التحرر العربي المناهضة للامبريالية، والهادفة لتحرير الأمة العربية ووصولها الى مرحلة الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. فالمقاومة لا تهدف فقط الى « إزالة آثار العدوان » أو « تحرير فلسطين » ، وإنما - أبعد من ذلك - الى تحرير الوطن العربي كله وتخليصه من الاحتكارات الأجنبية التي تستنزف خيراته . ثم إن المواطن العربي يرى في حركة المقاومة الفرصة لتحرير الانسان العربي من كل معيقات تقدمه وأسهامه في صنع الحضارة البشرية، يرى أنها الطريق للتخلص من الجمود والتحجر والشوفينية والطائفية التي نشأت عن عوامل الجهل والفقر والتخلف القسري .

إن المقاومة في نظر المواطن العربي تمثل أمل المستقبل !!

وقد طرحت المقاومة أمام الشعب العربي أسلوباً جديداً للقضاء على الوجود الصهيوني - وهو حرب التحرير الشعبية - وذلك بدل أسلوب التفكير القديم الذي كان يعتمد على مبدأ المباغتة السريعة والانقضاض المفاجيء ، والذي يفرض الأمر الواقع ولا يترك الفرصة للاستعمار بالتدخل . وهذا الاسلوب القديم لم يستطع أن يحرز النجاح على مدى ثمانية عشر عاماً ، ثم ان العدو الصهيوني بنى

استراتيجيته السياسية والعسكرية والاقتصادية على هذا الأساس من التوقع والتحفز لأية حرب مفاجئة . أما اسلوب الحرب الشعبية فقد أثبت نجاحه لدى كثير من الشعوب التي أخذت به وسيلة لتحرير الأرض المغتصبة .

ومن ناحية أخرى قدمت المقاومة مضموناً ثورياً للوحدة العربية، فطرحت شعار « تحرير فلسطين الطريق إلى الوحدة » بدل شعار « الوحدة طريق فلسطين » . وهذا في حد ذاته يعتبر ثورة في التفكير العربي ، ونفيا لإحدى المسلمات الفكرية القومية التي كانت سائدة من قبل . ومعنى ذلك أن يتم أولاً تحرير الأقطار العربية - بما فيها فلسطين - من خلال النضال القطري ، واذا ما تم ذلك فإن هذه الأقطار المحررة ستصل حتما الى الوحدة . واذا كان هذا ما تتصوره المقاومة للوصول الى الوحدة ، فقد قامت في المجال العملي بخطوة هامة لإلغاء التجزئة بين الأقطار العربية . يقول ياسر عرفات المتحدث باسم منظمة فتح : « اننا عملياً قد ألغينا التجزئة . اننا لانعترف بالحدود . إن رجالنا يتنقلون من قطر عربي الى آخر ببطاقاتهم الصادرة عن (فتح) وحسب . ونحن نعمل في كل أرض عربية ، وحيثما تواجد الفلسطينيون . ولنا قواعدنا في سورية ، وتدرب قواتنا في العراق ومصر والجزائر ، ولنا نشاط مثمر في السعودية والكويت وسائر أنحاء الخليج » .

ولقد واجهت المقاومة الفلسطينية بعض العقبات في المحيط العربي ، ولكنها استطاعت بأصالتها الثورية والتزامها بالهدف أن تتغلب على كثير من هذه العقبات . وكانت تتحرك في إطار مبادىء أساسية هي :

١ - عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة عربية .

٢ - رفض أي محاولة للوصاية أو التدخل من جانب الدول العربية ، ورفض الدخول في الخلافات التي تنشأ بين الدول العربية .

٣ – حق المقاومة في العمل على طول الجبهات العربية المحيطة باسرائيل ، وهو حق لايقبل المساومة أو التنازل .

٤ – الفلسطينيون هم عماد الثورة ووقودها ، وعلى الحكومات العربية أن تتيح لهم الفرصة للقيام بدورهم الطليعي في الثورة .

وقد تصرفت المقاومة على ضوء هذه المبادىء حينما واجهت الأزمة مع حكومة الأردن ، وكذلك في الأزمة مع السلطات اللبنانية .

ومهما يكن فقد استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تثبت وجودها فوق الأرض العربية ، وساعدها على ذلك أنها صادفت من أول لحظة لانطلاقها تأييداً شعبياً – لاحد له – من الجماهير العربية . وفي الأوساط السياسية العربية ، تطورت النظرة الى المقاومة خلال مراحل ثلاث : في المرحلة الأولى كان ينظر الى المقاومة الفلسطينية على أنها قد اخطأت التوقيت في الاعلان عن نفسها ، وأنها تعمل على توريط الأمة العربية في حرب ليست هي مستعدة لها . وفي المرحلة الثانية حينما بدأت العمليات الفدائية تشتد ولكنها كانت محدودة الأثر ، ظهر الرأي الذي يقول بأن حركة المقاومة بامكانياتها الضئيلة لاتستطيع احراز النصر الحاسم في معركة التحرير ، وأنها مجرد عامل مساعد للقوات العسكرية النظامية التي تقرر – في النهاية – مصير المعركة . أما المرحلة الثالثة في نظر الأوساط السياسية العربية الى المقاومة ، فهي تلك التي نشهدها الآن بعد التصاعد الكبير في عمليات المقاومة ، وهي لا ترى امكانية الوصول الى أي اتفاق بشأن المشكلة الفلسطينية دون إشراك المقاومة الفلسطينية في ذلك ، بل إن الشعب الفلسطيني – وحركة المقاومة هي المعبر الحقيقي عن ذلك الشعب – له وحده الكلمة الأخيرة في تقرير مصيره .

وهكذا فرضت المقاومة وجودها على المحيط العربي ، فكراً إيجابياً ، وعملا ثورياً ، وحقيقة واقعة .

الدائرة العالمية :

قبل قيام حركة المقاومة كانت كل معلومات العالم الخارجي عن القضية الفلسطينية تصله من مصادر اسرائيلية . ولكن تصاعد المقاومة ماديا ، وتبلور فكرها الثوري ، وانتقاله الى مرحلة الايجابية في التفكير ، كل ذلك بدأ يؤثر في الرأي العام العالمي . وإن طرح شعار « دولة فلسطين الديمقراطية » المنفتحة لكل الأجناس ، غير المتعصبة لجماعة معينة من البشر ، يتجاوب مع أفكار الجيل الجديد في العالم ، والذي يرفض العنصرية والتعصب ويؤمن بقيمة الانسان فرداً ، لا تبعا لانتمائه العرقي أو الديني . كما أن رفضها للدين أساساً من أسس القومية في الدولة الفلسطينية ، يؤكد مبادىء الفكر الحديث عن مفهوم القومية ، والتي ترى الكيان القومي مجالاً للتفاعل بين البشر وليس انغلاقاً على مجموعة معينة منهم ، كما ترى الصهيونية !

إن هذا النمط من التفكير الذي تميزت به المقاومة ، أدى الى حصولها على تأييد متزايد بين قوى التقدم في العالم ، فاستطاعت قضية فلسطين أن تحتل مكانها الصحيح باعتبارها قضية شعب وقضية حق ، بل من أهم قضايا التحرر الوطني في العالم . وبدأت تتغير النظرة الى شعب فلسطين من اعتباره مجموعة من اللاجئين الذين يبحثون عن المسكن والمأوى ، الى كونه شعباً قد اغتصب وطنه وأرضه وأرغم على حمل السلاح للدفاع عن حقه في الوجود . واهتزت الصورة التي حاولت الصهيونية أن ترسمها للصراع الدائر في الشرق الأوسط ، على أنه صراع بين دول

تقف فيه الدول العربيـــة بأجمعها في جانب ، وتقف في الجانب الآخر الدولة اليهودية الصغيرة !!

ولقد أدى وقوف القوانين والاتفاقيات الدولية الى جانب الحق المشروع لعمليات المقاومة ضد المحتل ، الى تعزيز موقف المقاومة الفلسطينية في المجـال الدولي . فقد نصت المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الموقعة في ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ بشأن معاملة أسرى الحرب ، على أن هـــذه الاتفاقية تنطبق على أفراد قوات المقاومة الوطنية ، ومن هنا فيجب معاملة أفراد هذه القوات معاملة أسرى الحرب عند الوقوع في أيدي العدو . وتنطبق الشروط التي حددتهـــا الاتفاقية لقوات المقاومة ، على منظمات العمل الفدائي الفلسطيني من حيث : أنها تعمل تحت قيادة واحدة مسؤولة ، ولها علامة مميزة ، وتحمل أسلحتها بصورة ظاهرة ، وتقوم بعملياتها طبقاً لقوانين وأعراف الحرب .

وظهر تحول بارز في الرأي العام العالمي لصالح الثورة الفلسطينية ، فقد بدأ الكثير من الكتاب والمفكرين ينظرون الى هذه المقاومة عاملاً له ثقله في الموقف المتأزم في الشرق الأوسط . وبدأت الهيئات والمؤتمرات الدولية تنظر نظرة جديدة الى ثورة الشعب الفلسطيني ؛ فقد أيد مجلس السلام العالمي المقاومة الفلسطينية وناشد شعوب العالم الوقوف الى جانبها ، أما مؤتمر تضامن شعوب آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية المنعقد في هافانا من ٣ – ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٦ فقد نادى بتضامن كل الشعوب مع الشعب العربي في فلسطين في كفاحه العادل من أجل تحرير وطنه من العدوان الصهيوني ، وكذلك المؤتمر الاستشاري لدول عدم الانحياز المنعقد في بلغراد في ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٦٩ فقد أعلن تأييده المطلق لكفاح الشعب العربي الفلسطيني وتأييده لمنظمة تحرير فلسطين ، أما مؤتمر القمة

الاسلامي المنعقد في الرباط في ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٩ فقد ذهب الى حد اشراك منظمة التحرير الفلسطينية بوفد مراقب في المؤتمر .

وعادت الصحف الأجنبية لا تتجاهل أخبار المقاومة أو تعبر عن الفدائيين بوصفهم ارهابيين - كما يقول الصهاينة - بل أخذت تستعمل ألفاظ Commandos أو Guerrillas - وهي تعني « فدائيين » - بل أحياناً تستخدم اللفظ العربي Fedayeen . ونشرت مجلة « تايم » الأمريكية في ١٣ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٦٨ تقول بأن المقاومة : « قوة جديدة متحدية في الشرق الأوسط » . وذهبت بعض هذه الصحف الى مقارنة المقاومة الفلسطينية بحركات التحرر الأخرى في العالم ، فقد كتبت صحيفة الجارديان البريطانية في ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٦٨ تقول : « إن الرأي القائل بأن منظمة الفتح تمثل حركة مقاومة أصيلة تشبه الحركات التي كانت قائمة في أوربا أثناء الاحتلال الالماني ، أصبح يلقى بعض التأييد في العالم الخارجي » .

الارض المحتلة

تمثل حركة المقاومة تحديا متعدد الجوانب للاحتلال الصهيوني ، وقد تمثل هذا التحدي في العناصر التالية :

١ - لقد كان أكبر مافقدته اسرائيل من جراء عمليات المقاومة هو فقدانها الاحساس بالأمن ، الذي تصورت أنه قد توطدت دعائمه بالانتصار العسكري في حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ . ان حالة من عدم الاطمئنان تنتشر في اسرائيل بانتشار وتوسع عمليات المقاومة المسلحة . ولا تقتصر هذه الحالة على المستعمرات الامامية المحصنة ولكنها تمتد الى أكثر الأماكن استقراراً في قلب الدولة ، وتؤدي الى تأثيرات بعيدة المدى على ماتسميه اسرائيل « بالحياة الطبيعية » داخل أراضيها .

ولقد خلقت المقاومة نوعين من الانسحاق النفساني يعيش فيه كل من هو داخل الأرض المحتلة . يقول كاتب صهيوني : « من المرعب حقاً ألا تعرف كيف ومتى ومن اين ستأتي الضربة القادمة في الظلام المخيف . حتى النهار لايحول دون الرعب عندماتسير على أرض هادئة يزلزلها لغم في اية لحظة » .

٢ ـ ولقد أدى فقدان الأمن داخل اسرائيل ، الى التأثير المباشر على خطط الصهيونية لجذب اليهود واغرائهم بمختلف الوسائل للهجرة الى اسرائيل . وتشير الاحصاءات الاسرائيلية الى أن عدد المهاجرين الى اسرائيل كان سنة ١٩٦٥ ، ٥٣ ألف مهاجر ،تناقص الى ٣٨ ألفاً سنة ١٩٦٦ ، ١٨,٥ ألفاً سنة ١٩٦٧ . وقد أعلن الجنرال فاركيس المشرف على شئون الهجرة الى اسرائيل في اواخر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٦٩ أن اكثر من ٣٠٠٠ يهودي قد غادروا بولندا ولكن لم يحضر منهم الى اسرائيل غير ١٤٠٠ وفضل الباقون الاستقرار في ايطاليا والنمسا وهولندا . وهكذا لم تعد اسرائيل حلماً لليهود كما كانت من قبل ، بل ان اليهود الذين يعيشون فيها بدأوا يفكرون في الهجرة الى الخارج . فبينما كان عدد المغادرين سنة ١٩٦٥ هو ٨٥٠٠ وصل سنة ١٩٦٦ إلى ١١ ألفاً ، والى ١٧ ألفاً سنة ١٩٦٨ . وقد اتخذت اسرائيل اخيراً اجراء مشدداً لمنع الهجرة الى الخارج . ومنعت الصحف من نشر أي اخبار عنها ، وذلك بعد أن تأكدت هجرة ٣٨١٦ اسرائيلياً من ميناء حيفا .

٣ ـ كما ان تصعيد المقاومة والمفاهيم الايجابية التي تطرحها يساعد في حملة التشكيك التي يقوم بها اليهود المعارضون للصهيونية خارج الأرض المحتلة ، والذين يرون انها تمثل خطراً عليهم في المجتمعات التي يعيشون فيها ، كما يندّدون بفظائعها ضد السكان العرب ، ويرون انها بعيدة عن جوهر العقيدة اليهودية . ولاشك ان

ازدياد التيار المعادي للصهيونية واسرائيل بين اليهود ، يمثل خطراً يحجب عنها دعائم وجودها من مصادر مادية وبشرية ومعنوية .

٤ – **سقوط أسطورة تفوق المقاتل الصهيوني على المقاتل العربي**، وهو ماحاولت اسرائيل ان تقنع به نفسها والعالم . لقد كانت تقول أن الانسان الفلسطيني الثائر هو مجرد سراب ، وأن العرب سرعان مايستسلمون ويخضعون للهزيمة . وجاءت المقاومة لتثبت كذب هذا الادعاء .

٥ – **بروز الكيان الفلسطيني إلى حيز الوجود** ، ومايعنيه ذلك من تغيير أساسي في طبيعة الصراع الدائر في الشرق الأوسط في نظر الرأي العام العالمي . انه يقضي على خداع اسرائيل ومحاولتها تصوير الصراع على انه بين مائة مليون عربي ومليونين من اليهود ، لكي تظهر الصورة الحقيقيـــة وهي أنه صراع بين الشعب الفلسطيني – تسانده الجماهير العربية – والغزاة الصهاينة يساندهم الاستعمار. ثم إن بروز الكيـــان الفلسطيني يطرح مشكلة الأرض ، ومن هو أحق بملكيتها ، وهذا يشكك في الوجود الصهيوني من أساسه . وفي ذلك قال موشي ديان في ندوة ضمت مؤيديه في شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٦٩ : « ان حرب الأيام الستة أعـــادت المشكلة الى الفلسطينيين ، فحولتها عن نتائج حرب الأيام الستة إلى إعادة النظر في وجود دولة اسرائيل ذاته » .

٦ – ولعل ما يقلق اسرائيل كثيراً هو الدور الذي تقوم به المقاومـة في تجميع القوى الفلسطينية والقوى العربية من حولها ، حتى أصبحت تمثل « المحور » الذي تتحرك من حوله كل هذه القوى . وبالتفاف الشعب الفلسطيني والجماهير العربية من حول المقاومة ، أصبح تحرير فلسطين مسؤولية يقوم فيها الفلسطينيون بدور الطليعة ، والشعب العربي كله يشكل القاعدة العريضة للكفاح . وتحاول

لاسرائيل أن توجـــد التناقض والتنافر بين السكان العرب ـ سواء كانوا داخل الأرض المحتلة أم خارجها ـ وبين رجال المقاومة . ولكن الحقيقة تعرض نفسها دائماً ، حقيقة التأييد الذي يمنحه سكان الأرض المحتلة لرجال المقاومة. فقد نشرت صحيفة ها آرتس في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ تقول : « إن معظم السكان في يهودا والسامرة يؤيدون منظمات الارهاب الفلسطينية ، وانه يكفي اليوم بضع عشرات من المحرضين لكي يثيروا السكان » .

٧ ـ تشتيت القوى العسكرية الصهيونية في عملياتها لمحاولة تعقب رجال المقاومة واطلاق النار وحماية المنشآت الحيوية في الأرض المحتلة. فيقوم الصهاينة كل ليلة بنصب نحو ألفي كمين للفدائيين . وجاء في تقرير نشره معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن أن اسرائيل اضطرت لتجميد أحد عشر لواء ، أي ما يقرب من ٤٠ ـ ٤٥ ألف جندي تحت السلاح للتصدي لعمليات المقاومة ، وأن ذلك يكلف اسرائيل يومياً ما يقرب من ١٢٥ مليون دولار مما يؤدي الى عجز ميزان المدفوعات الذي ارتفع من ٤٣٥ مليون دولار سنة ١٩٦٧ الى ٦٠٠ مليون دولار سنة ١٩٦٨ .

٨ ـ وكان لذلك تأثيره أيضاً على السياحة الى الأرض المحتلة فعلى الرغم من جهود الصهاينة لتنشيط السياحة مثل تخفيف الاجراء الجمركي ، وتجميل الأماكن السياحية ، والتوسع في بناء الفنادق ، وانشاء المدارس لتأهيل المرشدين ، والاهتمام بوسائل النقل والمواصلات ، وتخفيض أجور الطيران ، وعلى الرغم أيضاً من ارتفاع نسبة السياحة العالمية بوجه عام ، فان السياحة الى الأرض المحتلة لم تحقق الزيادة المرجوة ، بل نجد تناقصاً في هذه النسبة . فبينما كان عدد السياح سنة ١٩٦٦ ٣٢٨٠٧٧ انخفض سنة ١٩٦٧ الى ٢٩١١٠٠ اي بنسبة (١١٪) . وفي أوائل

أيار (مايو) سنة ١٩٦٩ صرح موشي كول وزير السياحة الصهيوني بأن عدد السياح الى اسرائيل انخفض ٢٥ ٪ في الأشهر الأربعة الأول من نفس العام . ان فقدان الأمن داخل الأرض المحتلة لا يجعل منها مكانا للراحة والاستجمام .

٩ ـ على ان أخطر ما يواجهه الصهاينة أمام تحديات المقاومة، هو ضرورة احداث تغيير أساسي في استراتيجيتهم العسكرية . لقد كان الصهاينة يبنون استراتيجيتهم على مبادىء الهجوم ، والمفاجأة ، ونقل المعركة الى أراضي الدول العربية المجاورة ، وبذلك يتحقق لهم دائماً فرض المعركة في الزمان والمكان المناسبين لهم . أما الآن فهم يواجهون بمعارك تنشب داخل الأرض المحتلة ، وليس لديهم قدرة التحكم في زمانها أو مكانها .

من أجل كل هذه التحديات التي جعلت أركان الوجود الاسرائيلي تهتز بفعل المقاومة ، قام الصهاينة بالتصدي لحركة المقاومة الفلسطينية ، واتخذوا لذلك سياسة ذات شقين :

الشق الاول : الردع ، أي التصدي للمقاومة بأبشع وسائل الارهاب والبطش مثل نسف البيوت والاعتقال والتعذيب والابعاد وغير ذلك .

الشق الثاني : الفصل بين السكان العرب في الأرض المحتلة ورجال المقاومة ، وذلك بوسائل الترغيب والاغراء لمنعهم من مساعدة رجال المقاومة او الانخراط في صفوفهم .

الردع الصهيوني :

وقد اتخذ الردع الصهيوني أشكالا مختلفة لعل أهمها :

١ ـ مطاردة الفدائيين بقوات الكوماندوس والطائرات .

٢ - الهجوم البري الجوي الواسع بقصد التطويق والابادة ، مثلما حدث الهجوم على الكرامة في ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٦٨ .

٣ - النسف والتدمير بواسطة الانزال الجوي ، كما حدث في مطار بيروت الدولي في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ .

٤ - الهجوم الجوي على مراكز الفدائيين وقواعدهم في الدول العربية المجاورة ، كما حدث في الهجوم على السلط بالأردن في ٢٦ آذار (مارس) سنة ١٩٦٩ ، وعلى ميسلون والهامة في سورية في ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٦٩ .

ويهدف الصهاينة من توجيه ضرباتهم الى قواعد الفدائيين في الدول العربية المجاورة ، فضلاً عن تدمير تلك القواعد ، إلى الايقاع بين تلك الدول ومنظمات المقاومة ، وإرغام الدول العربية على تصفية العمل الفدائي من أراضيها ، كما يهدف الصهاينة أيضاً إلى تشتيت مراكز المقاومة وابعادها عن الأرض المحتلة .

وقد استطاع الصهاينة بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، ونشاط العمل الفدائي، أن يوجهوا ضربات مؤثرة إلى المقاومة . وساعدهم في ذلك تكدس الفدائيين وتجمعهم في قواعد ثابتة ولكننا لو نظرنا إلى نتائج حرب حزيران (يونيو) وتأثيرها على المقاومة، نجد انها كانت عامل قوة بينما كانت عامل ضعف لقوات الاحتلال . فقد اتسعت المساحة المحتلة ، وزاد عدد العرب الفلسطينيين الخاضعين للحكم الصهيوني من ٣٥٠ ألف إلى ما يزيد على المليون والربع ، وهؤلاء يمثلون تربة صالحة للعمل الفدائي ، وبالتالي زادت اعباء الصهاينة لمواجهة المقاومة واضطروا لمواجهة مشكلات خطيرة سواء عسكرية أو اقتصادية .

أما عن جدوى هذه العمليات الردعية ، فانه يتضح مما تنشره الصحف الصهيونية نفسها . ففي ١٢ /١٩٦٩/٦ كتبت صحيفة « كول هعام » عن دراسة

حول اتجاه الرأي العام الاسرائيلي قام بها معهد البحث الاجتماعي ومعهد الاعلام بالجامعة العبرية واتضح منها أن هناك تحولاً ظهر في اتجاه الرأي العام بعد معركة الكرامة ، اذ اشتد القلق بالنسبة للأمن والوضع الاقتصادي في الأرض المحتلة فقد عبر ٦٨٪ ممن وجهت اليهم الأسئلة عن قلقهم إزاء أعمال المقاومة في مقابل ٥٥٪ قبل معركة الكرامة . وكتبت مجلة « هاعولام هازيه » في ١٩٦٩/٢/٥ بعد أن عددت نتائج عملية الهجوم على مطار بيروت تقول : « في بيروت لم تفشل عملية واحدة معينة. بل في بيروت فشلت كل سياسة العمليات الانتقامية العنيفة هذه».

ولم يغير من النتيجة شيئاً ما اتخذه الصهاينة من إقامة السور المكهرب على طول نهر الأردن للحيلولة دون تسلل الفدائيين إلى داخل الأرض المحتلة، أو من تطوير استخدام طائرات الهليكوبتر في مطاردة الفدائيين .

أما بالنسبة للشق الثاني من سياسة اسرائيل إزاء المقاومة، فقد عملت على محاولة الفصل بين العرب في الأرض المحتلة ورجال المقاومة . وعمدت إلى تقسيمهم إلى نوعين : « مدنيين مسالمين » ، « إرهابيين » . ويوضح موشي ديان هذه السياسة في مقال نشرته صحيفة هاآرتس في ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٦٩ حينما يقول : «إن الإرهابيين يزعجون حياة العرب أكثر مما يزعجون حياتنا .. يجب أن نجعل العرب يحسون بأنهم لا يمكن أن يعيشوا عيشة طبيعية مع وجود الإرهابيين ونشاطهم » .

ولكن تلاحم جماهير العرب في الأرض المحتلة مع رجال المقاومة، أدى إلى فشل هذه السياسة في تحقيق أغراضها . برز ذلك من خلال التأييد المستتر لرجال المقاومة ، والمظاهرات العلنية التي تعم أرجاء الضفة الغربية وغزة من وقت لآخر ، مما أدى إلى التهديد المتكرر من جانب السلطات الصهيونية

بالانتقام من السكان العرب . بل إن اسرائيل قد اضطرت فعلاً إلى اتخاذ اجراء انتقامي مثل حظر التجول ، وعمليات الضرب والتعذيب والسجن ، والفصل من العمل ، والابعاد الى خارج الأرض المحتلة ، ونسف المنازل . وآخر هذا الاجراء محاولة الاعتداء الجماعية على السكان العرب في عكا في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي. وإن سياسة «العقاب الجماعي» أو « الانتقام الجماعي» التي اعلنها موشى ديان أخيراً - والتي وصلت إلى حد نسف بعض القرى بأكملها - لا تدع مجالاً للشك في فشل محاولات الفصل بين السكان العرب والمقاومة الفلسطينية المسلحة . وفي نفس الوقت يعتبر ذلك دليلاً قوياً على أن العمل الفدائي الفلسطيني ينبع من داخل الأرض المحتلة ، وليس من الخارج ، كما يدعي الصهاينة !!

وقد جرب الصهاينة محاولة أخرى للقضاء على المقاومة ، وذلك باقامة دولة فلسطينية تكون خاضعة للسلطات الصهيونية تقوم بعقد صلح معها لتصفية القضية الفلسطينية ، فلا يصبح هناك مبرر لاستمرار عمليات المقاومة . ولكن جماهير الشعب العربي الفلسطيني المؤمنة بحقها في الوطن السليب ، رفضت هذه المحاولة من الأساس .

وإزاء فشل كل محاولات الصهاينة للقضاء على المقاومة ، وإزاء تصاعد عمليات المقاومة لتتبلور في ثورة فلسطينية شاملة ، اضطرت اسرائيل الى تغيير نظرتها الى المقاومة تغييراً أساسياً . فبينما أعلن كل من ليفي أشكول (رئيس وزراء الصهاينة السابق) وموشي ديان عقب حرب حزيران (يونيو) وتزايد نشاط الفدائيين بأنه قد اتخذت الاجراءات الكفيلة « لوأد المخربين في القبور التي يفتحونها للاسرائيليين وقد تم القبض عليهم ولن تقوم لهم قائمة » ، نجد أنه بعد عام واحد من ذلك وفي حديث نشرته صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » الامريكية

في ١٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٦٨ مع ناثان بلتيمور الذي كان يتزعم منظمة شتيرن الارهابية الصهيونية قال فيه: «اعتقد أنه من الواجب علينا مفاوضة (الإرهابيين) فقد أصبحوا الشخصيات الجديدة التي ينبغي أن نتوجه اليها بالحديث». وفي ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٦٩ جاء في صحيفة ها آرتس مايلي: «إن منظمات الفدائيين تشن علينا حرباً شاملة، دون أي قواعد أو شروط، ونحن نرد عليها بحرب مقيدة او شبه حرب. ومثل هذه الحرب مكتوب لها الفشل منذ البداية مهما كانت قوتنا العسكرية، ونجد أمثلة بارزة لذلك في حرب الفرنسيين في الجزائر، وحرب الامريكيين في فيتنام، فهذان المثالان يبينان لنا كيف تصبح القوة العسكرية الهائلة عاجزة».

إن المعركة التي يخوضها رجال المقاومة ضد الوجود الصهيوني، قد توقع نتيجتها الصهيونيون أنفسهم !!

القول والعمل

بول ريكور

ترجمة : جورج صدقني

تؤكد صلة القول بالعمل في حياتنا التوترات ، التي تغذي دينامية الوجود الشخصي وحركة الحضارات في غوصها المنهك ، تأكيداً يتصف بأكبر قدر من الوضوح . وهذه الصلة هي ترابط أولي أصلاً وأساسي جداً في وضعنا (Condition) ، وهي في الوقت نفسه ، نتاج عظيم الدقة للثقافات والتقنيات التي ينميها التاريخ . ويمكن للمرء أن يلتقطها خلسة وهي بعد وليدة ، في تحليل فينومينولوجي أولي جداً يتناول فعل القول وفعل العمل . ويمكنه ، في الوقت نفسه ، أن يدركها على صعيد عال

جداً من التعقيد من خلال المشكلات التي تطرحها في أمامنا حالة الأدب في حضارة تقنية ، وقلق الجامعة ، وتوجيه التعليم التقني ، والمشكلات الانسانية الناجمة عن دور الآلة في الصناعة الخ .. سنحاول إذن أن نتخذ مكاننا على طرفي التفكير : الجانب الجذري ، الجانب الراهن . جانب جذور العمل والقول ، وجانب المهمات المعاصرة لحضارة للعمل والقول . إن فاصلاً من التأمل في قدرة القول قمين بالفصل بين المتحدرين .

ولكن علام هذا البحث ؟ لقد بدا لي و كأنه السبيل الى تناول مشكلة وحدة الحضارة مرة أخرى ومن زاوية جديدة ، تلك المشكلة التي أتناولها ، في مكان آخر ،عن طريق مسألة الحقيقة ومراتب الحقيقة المتعددة . وقد بدا لي من قبل أن حضارةً من الحضارات تتقدم بتعدد المهمات وتعقدها ، بقدر ماتتقدم باقتراب هذه الوحدة العضوية التي تنم عنها العصور الكبرى . إن الجدل الأولي بين القول والعمل يحيلنا الى حدود المناقشة ذاتها .وتصدر هذه الدراسة ،في الواقع، من خيبة أمل ومن قلق : خيبة أمل إزاء فلسفات العمل المعاصرة (الماركسية ، أو الوجودية ، أو المسيحية) ، وقلق حيال مدلول حضارة العمل .

إن اكتشاف الإنسان أو إعادة اكتشافه بوصفه عاملاً لحدثٌ من أعظم أحداث الفكر المعاصر . وإن صبوتنا الى إقامة (حضارة عمل) لمتفقة اتفاقاً تاماً مع مسلّمات فلسفة العمل هذه . وإني لأؤيد هذه المسلّمات الفلسفية ، وهذه الصبوة الاقتصادية – الاجتماعية تأييداً كاملاً . وهدف تحليلي كله هو الردّ على الخيبة والقلق المولودين في داخل هذا التأييد ، واللذين يتغذيان من هذا التأييد نفسه .

ومصدر خيبة الأمل أن أرى اعادة الاعتبار للعمل هذه تنتصر في الفراغ.

إن تفكيراً كهذا ينطلق ، في الواقع ، من صورة محددة من صور العمل : العمل بوصفه صراعاً مع الطبيعة في المهن القديمة وفي الصناعة المستندة الى الآلة . ثم يتضخم مدلول العمل شيئاً فشيئاً حتى يشمل الفعاليات العلمية والاخلاقية ، بل النظرية برمتها ، ويميل نحو المدلول الغائم الحدود جداً ، مدلول وجود مناضل الإنسان وليس تأملياً . في هذه اللحظة ، يدل العمل على الوضع (Condition) المجسد للانسان كله ، لأنه مامن شيء لايعمله الإنسان بفعالية مشابرة ، ومامن شيء إنساني لايكون عملاً (Praxis) . وإذا رأى المرء فوق ذلك — في وجود الإنسان وفعاليته ذاتها شيئاً واحداً ، فيجب القول إن الانسان هو عمل . ولماذا لاتمتد فلسفة العمل حتى تصل الى هذا التأمل ، الذي يقدر الإنسان أن يدركه ، إذا كان صحيحاً أن ميداناً جديداً من ميادين الصيرورة والفعالية المناضلة ينفتح أيضاً في قلب حياة خالدة للانسان ؟ فيقال إذن إن التأمل الإنساني عمل هو الآخر .

وأخيراً ، ألا نرى ان التفسير الديني للعمل يستعيد آفاق فلسفة العمل ويكملها إذ يجعل من العمل الانساني تتمة لعمل الخلق الإلهي ؟

ان تمجيد العمل هذا ، هو الذي يقلقني . فان مفهوماً يعني كل شيء لايعود يعني شيئاً . يدّعي التفكير أن بوسعه الاحتفاظ بكسب حققه تحليل ، أخذ مفهومُ العمل فيه معنى محدّداً . فلقد بيّن الفكر بوضوح ما للمهنة اليدوية من فضيلة شاقة ، اذ فيها لايحتال الانسان على المادة كما يحتال على ثقافة اساسها الكلمات . ولكنهم في الوقت ذاته يوسعون مفهوم العمل ، بحيث يشمل أيضاً كافة الميزات الناجمة عن غموض هذا المفهوم . فنحن نضمن مفهوم العمل ، العمل اليدوي ، عندما نضع للانسان الشعار العام التالي : أن يعمل ، أن ينشىء ذاته في العمل .

وان التفكير لينصرف الى العمل اليدوي أيضاً عندما يمنح الإنسان شعاراً عاماً الحكمة القائلة : يصنع ، ويصنع نفسه وهو يصنع .

ومع ذلك ، لاخداع في هذا النمط من التفكير ، الذي يرتقي شيئاً فشيئاً بمعنى الصنع الأكثر مادية حتى يبلغ الفعالية الاكثر روحانية ، في حين تتبخر المقاومات وتلجأ الطبيعة المتمردة ، التي يصارعها الانسان العامل ، على التوالي الى ظلمة عالم يحتاج الى الفهم ، وأخيراً الى داخل أنفسنا ، في مقاومات جسم غير طيع وفي ظلمة أهوائنا . لاخداع هنا مطلقاً ، إنما هو انحياز مقنّع ، واذا جرؤت على القول ، هو ضرب من الحمية الفائقة .

ليست المسألة وقف هذا التقدم في التفكير – الذي يضم ، على التعاقب ، الى الوضع (Condition) المناضل لدى الانسان ، قطاعات فعاليته بأسرها – في مكان ما . المسألة ، بالأحرى ، هي مزج هذه القراءة للوضع البشري (Condition) بقراءة أخرى تتقاطع معها من طرف الى طرف . ذلك أن الكلام – هو الآخر – يلحق بنفسه كل ما هو انساني شيئاً فشيئاً . فليس هناك ملكوت عمل وامبراطورية كلام يتاخمان بعضها من الخارج ، بل هناك قدرة للكلام تخترق كل ماهو إنساني وتنفذ الى صميمه ، بما في ذلك الآلة والأداة واليد .

ها إن خيبتي تتخذ معنى على حين غرة : أليس مصدر هذا الضرب من الاسترخاء في فراغ المفهوم الرائع للعمل ، غياب نقيض يكون موازياً له ، نقيض يحدده بتاخمته إياه ؟ من الجدير بالملاحظة أننا ، بهذا التمجيد للعمل ، نختار له نقيضاً بعيداً بعداً كبيراً ، وغامضاً غموضاً مفرطاً ، وبكلمة واحدة ، خرافياً وغريباً عن الوضع (Condition) الإنساني : ألا وهو التأمل . بل ليس هذا التأمل

- كما قيل - تأملاً إنسانياً مايزال معوزاً ، إنما هو التأمل الخالص ، النظرة التي تجعل نفسها حاضرة لكل شيء في اللحظة ، الرؤية دون جهد لأنها دون مقاومة ، الامتلاك دون ديمومة لأنه دون جهد . إن توحيد الوجود والعمل ، وإقصاء هذا التأمل الخالص من الوضع (Condition) الانساني بالمعنى الدقيق للكلمة ، هما شيء واحد . إن هذا عديم الجدوى ، وإن ما يحمله إلينا من علم لضئيل على كل حال ، لأن مثل هذه (الفكرة - الجدية) ليست (قطباً - مقابلاً) صالحاً بالنسبة الى التفكير . إن هي إلا خرافة تبتعد عنا وتفسح المكان للانساني بكل مافيه من اتساع . أليس التمييز - حتى في داخل التنامي الانساني وفي قلب حياة الانسان المناضلة - بين التناقضات ذات الدلالة مثمراً أكثر ؟ أليس العثور على (قطب - مقابل) للعمل وفي مستواه ، قطب يسمو بدلالته ويضع جدارته موضع البحث ، أكثر إيضاحاً ؟ وعلى سبيل المثال : هل أقول إنني أعمل عندما أعود من العمل وآخذ قسطاً من الراحة ؟ أتراني أعمل عندما أقرأ ، وعندما أكون في (السينما) ، وعندما أقوم بنزهة ؟ أتراني أعمل في الصداقة وفي الحب؟ بل أتراني أعمل عندما أتحرف (Bricole) [1] ؟ إن عظمة العمل هي في أن يكون في مناظرة مع أنماط أخرى للوجود ، وفي أن يحدها على هذا النحو ويتحدد بها . فسيكون الكلام بالنسبة إلينا هذا الآخر - هذا الآخر بين آخرين - الذي يبرر مجد العمل وينقضه .

* * *

---

(١) تحرف في العربية معناها تكسب من كل حرفة ، أو عمل في كل حرفة ليست حرفته في الاصل بقصد الكسب او التسلية او اي قصد آخر . - المترجم .

فعل القول وفعل العمل:

لأن الكلام هو أيضاً إنساني ، وهو أيضاً نمط من أنماط التناهي ، وليس، مثل التأمل الخالص ، ما وراء الوضع البشري . ليس كلام الله ، الكلام الخلاق، بل هو كلام الانسان ، هو وجه من وجوه وجوده المناضل . إنه يؤثر في العالم ويصنع شيئاً فيه ، أو بالأحرى فان الإنسان الناطق يصنع شيئاً ويصنع نفسه ، ولكن على نحو يختلف عن الحال التي يكون فيها عاملاً .

فلننظر الى ولادة الكلام في مستوى الإشارة . ولنفرض الفرضية الأكثر مناسبة لتفسير اللغة تفسيراً براجماتياً : فلنفرض مع بيير جانيه (Janet) أن أبسط كلمة قد كانت ضرباً من الصيحة الأمرية ، التي كانت في البـــداية ترافق العمل وتيسّره تيسيراً انفعالياً (ليست التجربة المذكورة بحاجة الى أن تكون قد حصلت فعلاً : فهي تأخذ قيمتها بوصفها إعادة بناء خيالية تنير بنية الكلام الحالية). إن صيحة الآمر هذه يمكن أن تكون قد انفصلت عن العمل كمرحلة أولية تطلقه ، وعلى هذا النحو تكون الصيحة كلاماً منذ أن (تدفع - الى - العمل) بدلاً من أن تعمل ، تنتمي هذه الصيحة الأمرية ، إذن ، إلى دائرة الإشارة : إنها تحدث الاشارة على نحو من الأنحاء ، وإنها مثل جزء من انجاز أولي وبادىء ثم منظّم .

وعلى هذا النحو ، يمكن ، شيئاً فشيئاً ، إرجاع كل كلام إلى العمل Praxis : ففي أبسط حال ، ليس الكلام سوى برهة ، وهذه البرهة تغدو مرحلة من مراحل العمل منذ أن يأخذ الأمر الموجز أبعاد مخطّط مسبق لـ (خطة) من الخطط ، إذ إن هذه الخطة ليست سوى استباق العمل استباقاً لفظياً . وأخيراً يمكن للمرء أن ينظر الى بناء الثقافة كله وكأنه الالتفاف الطويل الذي يبدأ من العمل ويعود الى العمل .

برمة ، مرحلة ، التفاف : إن الكلام بمعنى من المعاني ، وبمعنى صحيح، هو ملحق بمشروعات تحويل البيئة الإنسانية بواسطة العامل الإنساني . وإن هذا الإمكان الأساسي ليسوّغ قراءة ماركسية للثقافة يتكشف العمل فيها وكأنه القوة التي تعيد تجميع الإنساني كله .

ومع ذلك فإن الكلام - من الأصل - يتحدى حدود الاشارة ويعدو أمامها . لأن الكلام الآمر لم يعد قسماً انفعالياً من العمل الجاري ، إنه ذو قيمة بالنسبة الى العمل كله بشكل من الأشكال . إنه يقول كلية الإشارة . إنه يحلق فوقها ويقود خطاها (سنجد بعد قليل وظيفة القيادة هـذه لدى الاختصاصيين النفسيين في العمل الصناعي، التي تحمل بذور عقلانية قادرة على إنقاذ العمل المجزّأ والمكرّر . إننا إذن لانتيه في هوامش المشكلات المشخصة في الحضارة ، إنما نضع أنفسنا سلفاً في قلب المشكلات التي تطرحها النزعة الإنسانية التقنية مثلاً) .

إن الكلام الآخر الذي كان قبل قليل يولد على تخوم الإشارة وهي في طريقها الى الإنجاز ، يمكننا الآن من أن نضع الخطوط الأول لفسحة أو لردة فكرية أولى ، وبذلك تنشأ في قلب الاشارة ثغرة تتيح لنا وضع مخطط استباقي للاشارة الكلية .

فالكلام ، إذ يؤخذ في محاذاة الاشارة ، يسبق كل إشارة اذ يدل عليها. فالكلام هو المعنى المدرك لما يجب أن يفعل .

وانطلاقاً من هنا ، يكون من الممكن دوماً قراءة تاريخ العمل وكأن تاريخ الكلام يحمله وينفذ الى صميمه . ان الانسان الناطق هو الذي يغيّر في أدواته إذ يستبق ، بتعبير ما ، مايضيفه الجسم من ثقل على المادة . الأداة امتداد للجسم ، امتداد مفرط لايمكنها من ان تتضمن مبادىء ثورتها الذاتية .

فالأداة المتروكة لنفسها على نحو من الانحاء هي من نظام العادة والثبات، كما يدل على ذلك دوام مقاومة التغيير في مجموعة الأدوات الفلاحية والصناعية واليدوية . ان الكلام هو الذي يقلب الصورة المكتسبة في الاشارة والأداة . فالإخفاق والعذاب يغمران الانسان في لجة التفكير والاستفهام . حينئذ يتشكل الكلام الباطني : كيف نصنع على نحو آخر ؟ وفجأة تخترق الأداة المعلقة، الأداة المحكية، سلسلة ثقوب هي امكانات عمل . ان اللغة تحدث انقلاباً في الصورة وصياغة جديدة تثقل الجسم . فاللغة تستبق وتدل ، إذ تحاول بالخيال احداث التحول : انه فراغ الابداع ، شقه الاخفاق والتساؤل عن الإخفاق .

ولكن الكلام ، بوجه خاص ، هو الذي يحدث الانتقال من الأداة الى الآلة . وكما يقول إمانويل مونييه (Mounier) في **ذعر القرن العشرين الأصغر** : « ليست الآلة ، مثل الأداة ، مجرد استطالة مادية لأعضائنا ، انها من نظام آخر : انها ملحق من ملحقات لغتنا ، إنها لغة مساعدة للرياضيات تمكننا من النفاذ الى سر الأشياء فنفقهها ونكشف عنها في مقاصدها الكامنة وفي قانونها » .

لقد كانت الرياضيات ممكنة – ومنها كانت الفيزياء الرياضية والتقنيات الناجمة عن الثورات الصناعية المتعاقبة ممكنة أيضاً – لأن الإنسان قد قال المكان في الهندسة بدلاً من أن يعيشه ويجربه في القياس . وإنه لما يثير الدهشة أن نعلم أن أفلاطون قد أسهم في بناء الهندسة الاقليــدية بعمل تسمية للخط والسطح والمساواة وتشابه الأشكال الخ .. تستبعد استبعاداً قاسياً أي لجوء الى المعالجات اليدوية والى التغييرات المادية في الأشكال ، وتستبعد أي تلميح الى ذلك . إن هذا الزهد في لغة الرياضيات ، الذي ندين له في آخر الامر بآلاتنا جميعاً منذ العصر الميكانيكي ، كان مستحيلاً بغير البطولة المنطقية يمـارسها بارمنيدس

منكراً بالجملة عالم الصيرورة وعالم العمل (Praxis) باسم الوحدة القائمة بين الدلالات . وإننا لمدينون بمؤلفات إقليدس وغاليله ، وبالميكانيكية الحديثة ، وبأجهزتنا كلها وبآلاتنا جميعها لهذا الانكار للحركة والعمل . لانه ، في هذه الاجهزة والآلات يتكشف علمنا كلـــه ، كما يتكشف كل الكلام الذي استنكف في البدء عن تغيير العالم . وبفضل ارتداد اللغة الى الفكر الخالص ، يستطيع العالم التقني أن يبدو لنا اليوم ، في مجمله ، وكأنه غزو يقوم به عالم الكلام للعالم العضلي . ان استعادة السلوك البرجماتي ، من قبل السلوك المتفهم ، ليلقي أمامنا ضوءاً عظيماً . فهي تكشف لنا ، في صميم الفعالية المنتجة ، التأليف الاول من الكلام والعمل والمناظرة بينهما عند ولادتها . إن هذا التطاول المتبادل هو نقض متبادل أصيل : فالعمل (Praxis) يلحق الكلام به لغـــة مخطّطة ، ولكن الكلام في الاصل ردة فكرية ، و « تبصّر في المعنى » ، و نظر (Theoria) وليد . وبدعوتنا هذا الجدل الأولي والمتجدد الولادة دوماً الى أن نرفض رفضاً حازماً أي تفسير سلوكي ، وبالأحرى أي تفسير يعتمد على الظواهر التابعة في ما يتصل بالبُنى الفوقية الثقافية المزعومة في المجتمع . فالكلام بنية تحتية كما هو بنية فوقية . ينبغي هنا رفض مخطط البنية التحتية والبنية الفوقية رفضاً مقصوداً ، ومواجهة ظاهرة دائرية على نحو صارم شديد الدقة ، حيث يتضمن الحدّان بعضهما بعضاً ، ويتجاوزان بعضهما بعضاً كل بدوره .

* * *

قدرة الكلام

إن الكلام الأقرب إلى العمل ، الكلام الآمر ، هو - منذ ولادته - نقد للعمل بمعنى مزدوج ، أي وضعه وضع المحاكمة وفرض حدود عليه .

إنه نقد للعمل لأنه يعلق ، أصلاً ، هم الحياة وهو روح العمل . انه يقيم فسحة ويفكر .

ولكنه إذا كان يعلق الهم ، فهو يستعيده على شكل آخر ، ويرتبط به على نمط جديد يتعلق أيضاً بالوضع الانساني المناضل وبالتناهي الانساني : إنه يستعيد الهم على مستوى الدلالات .

فلنبق أيضاً فترة في إطار الكلام الآمر الضيق ، الذي كان كافياً لفتح ثغرة أولى في دائرة العمل المغلقة ومشاغلها - ما هي العملية الجديدة التي تدشنها هذه الكلمة على تخوم العمل ؟

أولاً عمل نوعي في الآخر من قبيل التأثير وليس من قبيل الانتاج . الانتاج ينطبق على طبيعة - سواء كانت مادية أم لا - لما يطلق عليه ، هذا ، كشخص ثالث (غائب) . أما التأثير - حتى عندما يأخذ شكل الطلب الأمري - فيفترض شخصاً آخر ، شخصاً ثانياً (مخاطباً) : وسواء كان الطلب ملحاً أو مهذباً ، فظاً أو مقنعاً ، فإنه يثير لدى الآخر «تتمة» ، لم تعد «نتيجة» . وان العلاقة بوصفها (طلب - تتمة)[1] لتتجاوز العلاقة (انتاج - نتاج) . وتقدم للعمل هذه العلاقة

---

(١) لقد اغتنى تحليلي في طريقه ، في هذه النقطة وفي بضع نقاط أخرى من الصفحات التالية ، بتحليل فالتر بورتسر - انشاء الكلام - Porzer Das Wunder der Sprache - ch . IX : Die Leistung der Sprache .

بين البشر - المولودة من الكلام - تناقضاً وبعداً ثانياً . تناقضاً : لأن التأثير أمر يختلف عن الانتاج، الذي هو عمل تغيير دون مقابل. وبعداً ثانياً : لأن التأثير - في الوقت نفسه - يغني العمل بسلم العلاقات بين البشر كله : فكل جهد هو (جهد - مشترك)، أي عمل منطوق من عدة أناس وليس مقتسماً بينهم وحسب . وان علم النفس الاجتماعي يحيل على الدوام الى هذا الساف الاجتماعي الكلامي من العمل : اجتماعي لأنه كلامي . وعلى هذا النحو يتأثر المردود السيء والتعب بفساد العلاقات بين البشر، الناجمة عن التنظيم الاجتماعي للعمل وليس عن تقسيم العمل في حد ذاته وحسب : علاقات الرفقة في مراكز العمل . علاقات التنفيذ بين مكاتب الدراسة والمعامل ، علاقات التبعية الاجتماعية بين الادارة والعمال المنفذين ، دون اغفال العلاقات الاجتماعية التي تحدد المشروع من الداخل والخارج ، هذه العلاقات التي تنظم العمل (بكل ما للكلمة تنظيم من معان) تقع كلها في عالم الكلام .

ولكن الكلام الآمر لا يفعل فعله ازاء الآخرين ، بل ازاء الانسان ، الذي يجعل نفسه بالكلام ، موجوداً بدل . فمن يتكلم يتخذ موقفاً من ذاته أو يقرر . وانه يتضح لذاته اذ يصدر حكما يبدد التشويش الانفعالي السابق . ويشهد الكلام الباطني، المحتوى في كل قرار، شهادة صريحة على الانشاء الانساني الذي يمثله الكلام : إذا كنت لا أقول لنفسي شيئاً ، فانني لا أطفو أبداً فوق الضباب غير البشري للحيوان .. فاذا لم أرق صعداً بعملي إلى مرتبة التنظيم، فانني لا أرقى حتى بذاتي الى هذه المرتبة .

بيد أنه ينبغي أن يكون بوسعنا أن نتبين بجلاء ، في ما وراء هذا الأثر في الآخر وفي الذات ، وراء الكلام الذي يؤثر ، وراء الكلام الذي به أتخذ

موقفاً من ذاتي واقرر العملية الأكثر خفاء في الكلام : تأثير الاشارة الفعال على المعنى ، وانشاء المعنى نظاماً بفعل الكلام . لقد قلنا ان الكلام لا « يفعل » أبداً» إنه - على الأكثر - « يدفع - الى - الفعل » (سواء كان ذلك بواسطة آخر ، او بواسطتي منظوراً إليّ كآخر) . ولكنه إذا كان (يدفع - إلى - الفعل) فذلك لأنه يدل على ما يجب فعله ، ولأن الطلب المدلول عليه للآخرين «متضمن» فيه و « متبوع » به .

الدلالة على معنى هي ، بطريقة جد معقدة ، (اجراء) . وليس ممكناً ، في نطاق هذه الدراسة ، إعطاء أكثر من بعض الاشارات التلميحية الى هذا الاجراء الذي هو مع ذلك الموازن الحقيقي للعمل ، حتى في العمل .

ما من كلام ، بادىء ذي بدء ، دون فعالية مميزة بها يتميز قول العمل عن فاعله (ومن المحتمل غايته ، ونتيجته ووسائله) . ويلحق بفعالية التمييز هذه الانشاء الكبير الفعل والتسمية ، ذلك أن الأمرين مرتبطان : تمييز الأشياء وتسميتها ، ووجودها ، والافعال والصفات الخ ... التمييز هو الانشاء الأول ، والتقطيع هو الثاني . ذلك أننا نصبح أسياد عملنا لأن الكلام ينم عن مفاصله (يتقطع) في عبارات وأفعال وأسماء ونعوت ، أو بنوع من تقطيع ملازم لحركاتنا ويتضمن فيها ... وعلى هذا المنوال فان عملنا يرتكز كله الى مجموعة من التمييزات والعلائق ، فبدون التحويل التعبيري يبقى الانسان في المبهم واللاممتميز . وليس معنى هذا التحويل التعبيري تغييراً في الأشياء أو في أنفسنا ، وليس انتاجاً بالمعنى الحقيقي ، بل دلالة ، وكل دلالة تشير في الفراغ الى ما سيملأه بالتحقيق ، بالمعنى الذي نقصده عندما نقول (حقق مشروعاً) أو (حقق رغبة) أو (حقق خطة) .

ولامراء في أن فراغ الدلالات هذا هو في اصل بؤس اللسان وبؤس الفلسفة ، ولكنه هو الذي يمنح اللسان عظمته ، إذ هو بوصفه دالاً فاعلاً يمكن الكلام من تقطيع العمل وانشاء بناه .

وهذه « اللاقدرة » في الكلام ، بالنسبة إلى « قدرة » العمل ، هي حقاً إجراء وانشاء ، دون أن يكون الكلام مع ذلك عملاً بالمعنى الحقيقي . ولكي نعبر عن الشيء نفسه على نحو أقوى نقول : «ان ما سميناه تحويلاً تعبيرياً » للعمل هو « جملة » (بالمعنى الذي نتحدث فيه في قواعد اللغة عن جملة الموصول أو جملة مصدرية الخ) ، وفي كل جملة يتجلى فعل وهو فعل التأسيس . ان الانسان الذي يتكلم يؤسس معنى ، فهذه هي طريقته اللفظية في الانشاء .

وتختفي هذه الفعالية المؤسسة في الكلام اليومي الذي انهكه التكرار ، وهي تبرز الى الصف الاول في الكلام الرياضي حيث تكون التسمية شابة على الدوام. « نسمي حجماً كل جزء من المكان محدداً من كل جهة .. نسمي مساحة .. نسمي خطاً .. وأخيراً نسمي نقطة .. » فما برح برلس باران يعجب من سلطان التأسيس (Poser) هذا، من صياغة المعنى بالتسمية : « انما التسمية هي العبارة الأولى ... فكلماتنا تبعث موجودات و.. لاتقتصر على اظهار الاحاسيس .. ان اللسان بطبيعته تجريد بمعنى يبرز الواقع ، بل يدل عليه في الحقيقة »[1]. الكلام القاويم! يالها من مسؤولية ساحقة!

الكلام الارتيابي :

بيد أن الكلام ليس آمراً وحسب : لقد آن أن ترفع التحفظات التي فرضها على التحليل تصور مفترض بقصد منهجي ، كما أن التفكير في الانشاء الاول للسان قد تجاوز نطاق الكلام الآمر .

---

(١) بريس باران : أبحاث في طبيعة اللغة ووظائفها .

ان الكلام الذي يريد أن يقول ، الكلام الذي يحاول أن يفهم والذي يطمح الى أن يكون مفهوماً، هو ايضاً كلام ارتيابي، كلام نزوعي، كلام شعري .

الأمر (يدفع - الى - الصنع) . الكلام الارتيابي يستفهم : ما هذا ؟ ماذا يعني هذا ؟ ما من استفهام لولا وجود الريبة؛ الوضع موضع البحث ، الوضع موضع الريبة .

وكما أن الأداة عادة وسبات ، فالكلام في حركته الاولى عادة وسبات: يقال إن .. إن « يُصنع على هذا المنوال » لتدعمها « يقال » . وان الحضارات الراكدة لتغفو فوق كنز أدواتها وجملها .

ان الاعتقاد ، بوصفه حركة عفوية من الوجود السابق للانتقاد ، ليسم بميسم يوميته أساليب العمل والكلام بأسرها ، ويغرق في التقليد الميت الحركات والعبارات المألوفة وليس الكلام يقظة الأداة - كما كنا نقول قبل قليل - إلا لأن الكلام هو يقظة الكلام : « هل تعتقد ؟ » .

ان الكلام الارتيابي ملتفت نحو الآخر ، نحوي ، نحو المعنى . الكلام الارتيابي هو الكلام الموجه الى الآخرين بالذات . الآخر هو انسان الجواب . وهو في الجواب شخص ثان (مخاطَب) تماماً . انه لم يعد الـ« هذا» المميِّز للنتاج المصنّع ، بل الـ « أنت » الذي يجيب . والكلام يحاكي العمل الصناعي عندما تريد أن تنتج أثراً نفسياً بالطريقة التي يحصل بها العمل على نتيجته ، أي دون تجاوب من النتاج حيال المنتج . ومن هذا القبيل كلام الدعاوة، الذي يستخلص نتائجه النفسية بالطريقة التي تستخلص بها الآلة شكلاً ناجعاً من قطعة مشغولة . هـــذا الكلام خارج تماماً عن دائرة الاستفهام والجواب .

انه يتنج، ولا ينادي . الريبة وحدها تقلب الكلام الى سؤال والاستفهام الى حوار ، أي الى سؤال يرمي الى جواب وإلى جواب عن سؤال .

ان عالم الحوار ينفذ الى عالم العمل ويتجاوزه : انه ينفذ اليه لأنه ما من عمل دون تقسيم للعمل ، وما من تقسيم للعمل دون تبادل لفظي يوزع المهمات ويطلق المعنى الاجتماعي الكامن في العمل الانساني . بيد أن عالم الحوار يتجاوز عالم العمل ايضاً . انه يتجاوزه الآن في مراكز العمل : ان سيكوسوسيولوجية العمل المجزأ والمكرر تعلمنا - وياللعجب - أن العمال ، القادرين على أن يتحرروا ذهنياً من عمل يزداد فعالية بازدياد الآلية فيه ، يزداد مردودهم عندما يستطيعون « التحدث » وهم يعملون . ان الكلام هنا يساعد على العمل لأنه يعوض عنه ، لأنه يلهي ما القول ، والحالة هذه ، في الحوار بوصفه وقت فراغ ، وقت الفراغ هذا الذي يمضي العديد من البشر شيئاً فشيئاً ليبحثوا فيه عن تعبيرهم الحقيقي ، بعد أن أصبح العمل التضحية الاجتماعية الضرورية للظفر به ؟

بيد أننا سنمدد هذا التأثير المتعدد الخاص بالكلام على العمل ، بمناسبة الحديث عن حضارة العمل .

ان هذا النداء الموجه الى الآخر ، والمرتد نحوي أنا نفسي ، هو ما يضع الامور موضع بحث على شكل أساسي ينشيء فسحة التفكير وفسحة الحرية : « أتساءل اذا .. » ان الحوار الداخلي هو التفكير ذاته . انني اجعل نفسي بنفسي انسان السخرية . ومذ ذاك تكون الدودة التي لا مردّ لها في ثمرة عادتي الخاصة بي ، في شجرة العمل ، في أرومة الاعتقاد . ويكون الكلام انتقاداً ويجعل كل وضع انتقاداً . وتبدأ نهاية « السذاجة » . السذاجة هي من مرتبة « مايوجد » : « توجد ،

أشياء ، توجد الطبيعة ، يوجد التاريخ ، يوجد قانون العمل ، يوجد سلطان أولئك الذين يأمروا والكلام الارتيابي يضع الشيء والصيغ و (الدفع ـ الى ـ الصنع) موضع السؤال وضعاً مضمراً : ان قوة الكلام التفجرية هي بمثابة نقض اجمالي للعالم والعمل والطغاة ان فلسفات السؤال الكبرى (وفلسفات « الوضع موضع السؤال ») ـ سقراط وديكارت وهيوم و كنط وهسرل ـ لم تصنع شيئاً سوى تحرير هذه العبقرية الارتيابية في الكلام وحملها الى اقصى مدى . وبهذا تكون هـذه الفلسفات روح كل ثقافة متمردة على التركيبات المتسرة دوماً ، تلك التركيبات التي تقترحها حضارات الاعتقاد الجمعي وتفرضها، سواء كان الموضوع الموحّد في هذه الحضارات زياً ، او سيفاً ، او آلة .

والكلام الارتيابي ـ على صعيد أكثر جذرية ايضاً ـ يحدث الثورة الحاسمة في نظام الدلالات: فهو يدخل بُعد الـ « ممكن » في نسيج الواقعة الخام الخالي من الفراغ (سواء كانت الواقعة وجوداً أم فعالية) . ان الكلام ، اذ يخلق فسحة حركة الامكان ، يقبض من جديد على معنى الواقع ـ معنى الصنع ومعنى الواقعة ـ انطلاقاً من المعنى الممكن ، على هذا النحو يُصنع القانون العلمي ، والقانون التشريعي . و كذلك فإن « انفلات الفكر » هذا بواسطة السؤال ، هو الذي يجعل كل التزام ممكناً ، بوصفه حركة لاحقة للتفكير ، بوصفه فعلا مسؤولاً .

وإذا نظرنا في الأمر عن كثب وجدنا أن الفكر الارتيابي هو المعلم الحقيقي لكل فكر ينفي ويثبت ، وأخيراً هو المعلم الحقيقي لأبسط المنطوقات لأن الجواب الحاسم ، الجواب الأول ، هو ذلك الذي يقول لا ، ذلك الذي يدخل السلبية في الدلالات : فكل ماهو موجود موجود ، غير أن الكلام يستطيع أن يقول اللاوجود . وعلى هذا النحو يمكن لما تمّ صنعاً أن ينفك

صنعه . النفي هو شطب معنى ممكن . حركةٌ هي الحركة غير المنتجة بالذات ، حركة لاتعمل ، ولكنها حركة تدخل في الاعتقاد العفوي ، في الانشاء الأول الساذج لأحد المعاني ، الخطّ الحاسم الذي يشطبه من طرف إلى طرف ويخلع الإنشاء الأول كما يُخلع أمير من الأمراء . ومنذ الآن يكون عالم الكلام هو ذلك الذي نفي فيه . ولهذا أيضاً كان هذا العالم هو ذلك الذي نثبت فيه : فالإثبات يضع خطاً تحت ما كان بوسع النفي أن يشطبه أو ماشطبه فعلاً . إنه يؤكد مايدحضه النفي . إنما يوجد النقص في عالم الكلام الارتيابي . وإنما توجد الإثباتات في عالم النقص .

كذلك يمكننا القول إن المنطوقات – التي لاتصنع في الظاهر إلا معاينة الوقائع – انتصارات للفكر الارتيابي ، لأن مثل المنطوق مثل جواب عن سؤال محذوف . فما من رواية لاتجيب جواباً ضمنياً عن السؤال : ماذا حدث ؟ كيف جرى هذا ؟ والعلم كله مثله مثل جواب عن عراقيل الارتباكات ، تقيمها الفلسفة ارتياباً في معنى الصفات الحسية ، وإنكاراً لجلال الظاهر .

هـــذا الارتياب وهذا الإنكار وحدهما اللذان استطاعا أن يفتتحا هذا الميدان للإمكان ، حيث أمكن ظهور قانون بلغ من التجريد والبعد عن الواقع حداً أدّى إلى أن مبدأ مثل مبدأ العطالة ، الذي لم تستطع أية طواعية للمظاهر أن تقود إليه ، هو الذي خرج منه ، رغم ذلك ، التفكير الميكانيكي برمته .

الدعاء :

ومع ذلك فإنه يكون من قلة الإنصاف حصر قدرة الكلام بكاملها في تناوب الأمر والانقياد ، حتى لو وسعنا بملكة الكلام الارتيابي لتشمل الإثبات والإخبار .

كان بروتاغوراس يقول إن جذور الكلام الأربعة هي الأمر ، والتمني أو الصلاة ، والسؤال ، والجواب .

إن هذا الاسم - أوخولي (Eukhôlê) : تمن ، صلاة ، ليفتح مجالاً واسعاً لحياة الكلام ، وهو مجال يجنب الانسان الناطق عملية الانتقاء بين الكلام الآمر الذي يذوب بنهاية المطاف في العمل ، وبين الكلام الريبي الذي يزيل في نهاية المطاف الانسان العاقل .

إنها ، والحق يقال ، لمملكة أخرى تبدأ هنا : فالطلب الذي ينتظر كل شيء من الآخر ، والذي يهب الإنسان لرعاية الآخر ، لم يعد طلبَ الأنا العامل ، ولا طلبَ الأنا الساخر ، بل - إذا أمكن القول - طلبَ الأنا المتضرّع . إنه كلام إنساني لم يفقد بعد جاذبية الأمل : فهو ، إذ يلتفت إلى الله ، يستغيث به في جوقة المأساة الإغريقية ، في لغة المزمور العبراني ، في لغة الطقوس المسيحية ، في لغة دعاء المؤمن دعاء عفوياً ، عفوية لغة الحياة اليومية . وهو ، إذ يلتفت إلى العالم ، يود أن يكون الغناء الحقيقي الذي يقول المعنى غير المطروق ، والنضارة ، والغرابة ، والهول ، والعذوبة ، والتدفق الأول ، والسلام : إن هولدرلن وريلكه وراموز وكلوديل يؤكدون أن الكلام لا ينحصر

في الوظيفة اللفظية للحياة اليومية ، وللتقنيات والعلوم ، وللمصطلحات وللسياسة ، وللتهذيب والمحادثات العادية .

والكلام الطابي ، إذ يتجه نحو المعاني الكلية ، يستهدف القيمة تبنياً ، أو يستهدف ، أساساً ، تحقيق فعل التقييم . فليس من قبيل المصادفة أن شن سقراط معركة اللغة حول معنى كلمة « فضيلة » ، أي ماله قيمة في الإنسان . إن الكلام ، إذ يشق سبيلاً الى حقل الممكن ، يشق سبيلاً أيضاً إلى حقل الأفضل ، ومذ ذاك يكون السؤال مفتوحاً : مامعنى عملي ، أي ماقيمته ؟ إن العمل يكون عملاً إنسانياً بدءاً من هذا السؤال عن قيمةالعمل الشخصيةوالجماعية ، وهذا السؤال هو من عمل الكلام .

والكلام الذي «يصلي» ، إذ يلتفت نحوالبشر ونحوي أنا نفسي ، هو لغة التعجب بالذات . وإذا كان يمكن للوضع (Condition) الانساني أن يكتشف ويعبر عنه في استعداداته العاطفية الأساسية ، فذلك لأن الصحة قد ناب عنها الغناء . إنها لغة قريبة من لغة الابتهاج التي امتلكت من جديد التعبير اليومي عن الألم والفرح ، عن الغضب والخوف ، لكي تسمو به إلى الصعيد الغنائي لتعبير مصفّى . لقد غنت المأساة الاغريقية – مأساة إسخيلوس – المعرفة المريرة التي يولدها القلب الانساني في معاناته الألم . ذلك الألم الذي تصعد وتجلى غناء في صيغة الدعاء :

« زيوس !... أياً كان اسمه الحقيقي ، إذا كان هذا الاسم هو الذي يرضيه ، فهذا هو الذي أناديه به . لقد وزنت كل شيء : إنني لاأعترف بغير زيوس قادراً على أن يريحني حقاً من عبء قلقي العقيم ...

« لقد شق للبشر سبل الخير بنحيهم (تعذبوا لكي تفهموا) قانوناً . وعندما يرشح وخز الضمير الأليم ، في الهجوع العميق ، تحت بصر القلب ، تنفذ الحكمة فيهم ، رغماً عنهم . وهذا حقاً ، فيما أعتقد ، عنف الآلهة النافع ، الآلهة الجالسة على السدة السماوية » .
(أجاممنون) .

وهكذا ينمي الكلام الوعي والتعبير عن الذات في اتجاهات متعددة لحصناها في طريقنا : كلام آمر به أعقد العزم مصدراً حكماً في بلبلتي العاطفية ، وكلام ارتيابي به أسائل نفسي وأضع نفسي موضع السؤال ، وكلام اخباري به أفحص نفسي وأعاينها وأعلن عن هويتها ، بل وكلام غنائي أيضاً به أغني عواطف الجنس البشري الأساسية وعواطف الوحشة .

في نهاية هذا الفاصل حول قدرة الكلام ، يصبح الإخصاب المتبادل بين العمل والكلام واضحاً وكذلك انفصالها الضمني في الوقت نفسه .

ولعله يمكن القول إنه يوجد عمل حيث ينتج الانسان أثراً نافعاً يلبي حاجات ، بواسطة جهد شاق كثيراً أو قليلا ، في مواجهة مقاومة طبيعة خارجنا أو فينا .

ان العمل يشمل الكلام بمعنى من المعاني ، لأن الكلام هو أيضاً جهد شاق كثيراً أو قليلا ، أي هو مهنة تنتج آثاراً نافعة تلبي حاجات الجماعة ، ولو لم يكن ذلك إلا مرحلة من مراحل انتاج الأشياء . بيد أن جوهر الكلام يفلت من طبيعة العمل : **الكلمة تدل ولا تنتج** . إن نهاية الانتاج أثر واقعي ، أما نهاية الكلمة فمعنى مفهوم . زد على ذلك أن الكلام يكون دوماً مجانياً الى درجة

ما . فليس من المؤكد أبداً أن يكون كلام نافع ، لأنه يبحث ، ويوقظ حاجات ، ويجدد الأدوات . ولكن بوسعه أيضاً أن يكفي نفسه بنفسه في منظومة الأوليات (Axiomatiques) . انه يعاين ويستفهم . انه يستغيث . وبوسعه ايضاً أن يتكلم لا ليقول شيئاً ، بل ليثرثر ، ويكذب ، ويخدع ، ويهذي . ولهذا فمن العسير ان يوقع العمل الكلام في الخزي إذ أن الكلام - على ما يبدو - لا يصبح شيئاً . إن هملت يقول : «عبث القول : كلمات ! كلمات ! كلمات !(Words ! Words ! Words !) » .

ولكن ماذا يكون من أمر حضارة للعمل بغير عظمة الكلام وعبثه ؟

* * *

في سبيل حضارة للعمل والكلام :

فيم يساعدنا هذا الجدل بين العمل والكلام على توجيه أنفسنا في المشكلات الراهنة للحضارة ؟ جوهرياً في هذا : أنه يحذرنا من حل وهمي للتوترات التي تغذي حركة حضارتنا .

إن صورة هذا الجدل الحالية سوف تزول ويجب أن تزول ، ولكن صوراً أخرى سوف تنبثق وتطرح مشكلات جديدة .

السقوط في العمل الى هاوية الصراع والموضوعية :

إن الصورة التاريخية الحاضرة لجدل العمل والكلام محكومة بعاملين لا يسمحان بإرجاع أحدهما الى الآخر :

١ - إن العمل الانساني ضائع في نظام الأجور ، فهو يتاجر به كقوة عمل منفصلة عن الشخص ، ويعامل كشيء خاضع لقوانين السوق . وهذا

الانحطاط الاقتصادي – الاجتماعي للعمل تابع للنظام الاقتصادي – الاجتماعي للرأسمالية . ويمكن للمرء أن يأمل في زوالها مع زوال الوضع المأجور ، ويجب أن يريد ذلك . ويقابل هذا الانحطاط الاقتصادي – الاجتماعي للعمل كرامة منتهكة للكلام ، يزيد في وقاحتها انها مهدورة دون أن تدري وانها موضوع اتجار في سوق الخدمات : إن الثقافة لصلفاً متناظراً تناظراً شديد الدقة مع ذلّ العمل ، وهو صلف يجب أن يزول بزوال الذل . وجذور هذا الصلف عميقة ، فهي تغوص في العصور القديمة (اليونانية وليس اليهودية ، فلنلاحظ ذلك) . فلما كان العمل من شأن العبد، فهو مستعبد ولما كانت الثقافة من شأن الانسان الحر ، فهي حرة (ليبرالية) . والتعارض بين المهن الحرة والمهن الخادمةهي –والى حد بعيد– نتيجة لوضع اجتماعي اكره العامل على قبوله في المجتمعات التاريخية . والثقافة تقوّم نفسها بنفسها ، أو بالأحرى تبالغ في تقدير قيمة نفسها بالقدر نفسه الذي تدعم فيه النظام الذي يخفض قيمة العمل .

وأعمق مما تقدم : انالثقافة تصبحآلة بنسبةماتسهم علىشكل مباشر أو غير مباشر– في استغلال العمل :

فالعارفون والمتكلمون هم الذين يأمرون ويغامرون (مادام الاقتصاد السلعي اقتصاد حساب ومغامرة) فلابدّ من « مثقفين » ليصوغوا نظرية النظام ، ويدرّسوها ، ويبرّروها في أعين ضحاياها أنفسهم .

موجز القول :إن الرأسمالية لم تستطع ان تدوم بوصفها اقتصاداً إلا لأنها ثقافة أيضاً ، لابل أخلاق ودين . وعلى هذا النحو يتحمل الكلام وزر انحطاط العمل . ولهذا يغذي الفكر الثوري حقداً له مايسوغه على جملة الثقافة المدرسية (الكلاسيكية) بوصفها ثقافة بورجوازية ، ولأنها سمحت بإيصال طبقة مستغلة

الى السلطة وبالإبقاء عليها فيها . وكل انسان يفكر ويكتب ، دون ان يضايقه في دراسته أو في بحثه نظام يتجر فيه بعمله كما يتجر بسلعة ، ينبغي أن يكتشف أن هذه الحرية وهذا الفرح فاسدان ، لأنهما مقابل عمل — هو ، من الجانب الآخر ، بلا حرية ولا فرح لأنه يعرف ويشعر أنه يعامل كشيء — ولأنهما ،من قريب أو من بعيد ، شرطُ هذا العمل ووسيلته .

٢ — غير أن الوضع الحديث للعمل ليس محدداً بالشروط الاقتصادية — الاجتماعية الرأسمالية وحسب ، بل بـ (**الصورة التكنولوجية**) التي أسبغتها عليها الثورات الصناعية المتعاقبة . وهذه الصورة مستقلة استقلالاً نسبياً عن نظام رأس المال والعمل ، وتطرح مشكلات لا تحلّها الثورات على صعيد النظام الاقتصادي والاجتماعي للعمل ، وإن سمحت هذه الثورات بطرحها طرحاً أصح وبحلّها حلاً أيسر . ان انفجار الحرف القديمة في شظايا من المهمات المجزّأة والمكرّرة ، والتي يتضاءل ماتتطلبه من صفات مهنية تضاؤلاً تدريجياً ، يطرح مشكلة مثيرة للقلق . فلا ينبغي أن يتبدّد تقريظ الفلاسفة وعلماء اللاهوت للعمل بين الغيوم ، في عين اللحظة التي تميل فيها كتلة من العمال تزداد ضخامةً يوماً بعد يوم الى أن ترى في عملها مجرد تضحية اجتماعية لم يعد معناها وفرحها في ذاتها ، بل خارج ذاتها . في استمتاع المستهلك وملذّات وقت الفراغ المكتسب باختصار يوم العمل . واليوم فإن هذا الانفجار الذي حول العمل الى مهمات جزئية تتكرر روتينية ، لا يصيب العمل الصناعي وحسب ، بل يصيب أعمال المكاتب ، وهو يوجد بأشكال مختلفة في التخصص العلمي ، وفي التخصص الطبي ، وفي أشكال العمل العقلي بأسرها ، ولكن بدرجات متفاوتة .

لقد عوّض عن هذا الانفجار وهذا التخصص ، والحق يقال ، ظهور

حرف كاملة جديدة على مختلف المستويات : بنائين ، ومنسقين، ومصلحي آلات. كذلك نشهد تجميعات في مختلف العلوم بفضل النظريات الجديدة التي تشمل علوماً ظلت منفصلة حتى ذلك الحين ..

وبذلك يعوض تعدد القيم الفكرية، عن تخصصها وانفصالها ولسوف نرى فيما يلي مدى تأثير الثقافة النظرية في هذا التعويض ، إذ أن هذه الثقافة تكون باستعادة ذاتها وبالتقويم التقني للعامل وللباحث المتخصص ، فردودها بعيد المدى .

إني لأتساءل ، والحالة هذه ، عما إذا كان الوضع التكنولوجي للعمل الحديث لايظهر – وراء « الضياع » الاجتماعية – بؤساً خاصاً بالعمل يرجع الى وظيفته في انشاء الموضوعية . لقد عظم شأن هذا « الانشاء » الذي يحقق الانسان به نفسه ، ويكتمل ، ويتفتح . بل لقد جعل الحل الفلسفي للنزاعات بين المذهب الواقعي والمذهب المثالي ، بين المذهب الذاتي والمذهب المادي الخ .. وبكلمة واحدة حل الصعوبات القديمة في نظرية المعرفة وفي الأنطولوجيا . إن مزية العمل هي أنه يربطني بمهمة معينة متناهية ، فهناك أظهر من أنا بأن أظهر ما أستطيع ، وأظهر ما استطيع بأن أصنع شيئاً محدداً . إن «تناهي» عملي و« كماله » هما اللذان يكشفاني للآخرين ولنفسي. هذا صحيح حقاً ، غير أن هذه الحركة التي تكشفني ، تخفيني هي نفسها ، هذه الحركة التي تحققني تفقدني شخصيتي ايضاً . وإنني لأرى تماماً من تطور الحرف – بما فيها حرفة المثقف – أنه يوجد حد تتجه نحوه حركة انشاء هذه الموضوعيـــة : هذا الحد هو افنائي في الحركة العديمة المعنى ، في الفعالية العديمة الدلالة بالمعنى الحقيقي ، لأنها لاأفق لها. ولكن كوني إنساناً لا يعني أن أصنع المتناهي وحسب ، بل أن أفهم المجمل

أيضاً ، وأن أتوجه على هذا المنوال نحو هذا الحد الآخر الذي هو عكس الحركة العديمة المعنى ، نحو أفق كلية الوجود الإنساني الذي أسميه عالماً أو وجوداً . ها نحن قد عدنا فجأة بواسطة هذا المنفذ ، الذي يقدمه لنا العمل الحديث ، الى حديثنا عن الكلام بوصفه دالاً على الكل ، بوصفه إرادة الفهم بواسطة الكل .

ولعل نتيجة تطور العمل لم تكن الا كشفاً عن نزعة قائمة في صميمه ، ألا وهي تحقيق الانسان بصهره في «المتناهي» ! ويفضح هذا الفقدان -غير المحسوس- لذات نفسه بضرب من السأم الذي يحل على مهل محل العذاب في تنفيذ العمل ، وكان عقاب الموضوعية يتجسد من جديد تجسداً أشد رهافة في ضرب من الألم النفسي متلازم مع تجزيء العمل الحديث وتكراره .

هذا الميل لا يقبل الإرجاع الى « الضياع » ، الذي هو بالمعنى الحقيقي تلاشي الانسان ليس في آخر وحسب ، بل لصالح إنسان آخر يستغله . إن الضياع يطرح مشكلة اجتماعية وفي نهاية المطاف سياسية ، أما إنشاء الموضوعية فيطرح مشكلة ثقافية .

إني لأتساءل ، والحالة هذه ، عما إذا كان في قلق الثقافة الحالي شيء يتناسب في ارتباط متبادل مع القلق الأساسي في العمل المعاصر . إن الفنون والأدب والتعليم الجامعي، تعبر في ما وراء فساد الثقافة البورجوازي عن مقاومة صماء لدى الانسان تجاه التلاؤم مع العالم الحديث .

من المؤكد أن هذه المقاومة ليست نقية . فهي تكشف عن ذعر الانسان الحديث أمام التحولات المفاجئة في العالم التقني ، وهي تعبر عن الغبن في علاقة قديمة للانسان ببيئة « طبيعية » ، وهي تشهد على اضطراب إيقاع زماني منقلب رأساً على عقب . وهذه البلبلة مبطنة بسوء الطوية: سوء طوية (سقراط) - بطل

« دايري » ـ الذي يأسف ، إذ يلتقي في الجحيم بالمهندس أو باليتوس ، لأنه لم يبن شيئاً بيديه ، ولأنه فكر وحسب ، أي ثرثر . وسوء الطوية ، كعهده دائماً ، ينقلب الى غل : لأنه اذا اكتشف (سقراط) أنه لم يبارح أشباح الكهف الى واقع (المثل Idées) ، ولكنه بارح واقع الآلات الى أشباح القول وحسب ، فان (سقراط) سبقت الآلات والواقع .

لاشيء من هذا كله نقي ، ولا هو صحيح مطلقاً . ففيما وراء هذه البلبلة وهذه الطوية السيئة ، اللتين تضافان الى بعضها على نحو غريب ، تفصح الثقافة عن رفض شرعي للتلاؤم . فالثقافة هي أيضاً ما يمنع تلاؤم الانسان ، ويبقي عليه مستعداً للمفتوح ، للبعيد ، للآخر ، للكل . إن صد الموضوعية والتلاشي فيها بواسطة « التفكير » ، وتعويض تلاؤم الانسان العامل مع عمل متناه باستفهام الانسان الانتقادي عن الوضع الانساني في مجمله وبغناء الانسان الشاعري ، هما وظيفة « العلوم الانسانية » ، والتاريخ ، ووظيفة الفلسفة أكثر من أي شيء آخر . وربما لم تكن التربية ، بالمعنى القوي للكلمة ، سوى التوازن السديد ، لكن العسير ، بين ما تقتضيه الموضوعية ـ أي التلاؤم ـ وما يقتضيه التفكير وعدم التلاؤم . إن هذا التوازن المتوتر هو الذي يحفظ للانسان قوامه[4] .

حضارة العمل :

بوسعي الآن أن أبين قوة تأييدي لمدلول حضارة العمل وحدوده . إنني أتبنى التعريف الذي يقترحه بارتولي (Bartoli) تبنياً كاملا : « حضارة يكون العمل فيها هو المقولة الاقتصادية والاجتماعية السائدة » . ولا يمكن لهذا التعريف

(٤) انظر مقالة « الكلمة مملكتي » في « مجلة الفكر » ، عدد شباط (فبراير) ١٩٥٥ .

أن يشير صعوبة بمجرد قبول الانتقاد الذي نوجهه جميعاً من جهة اخرى الى الرأسمالية بشكلها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي . وهذا التعريف مقبول ولا سيما أن سهمه ليس موجهاً ضد شبح النظر ، بل ضد تميمة المال . وهذا هو الذي يجعل تفكير الاقتصادي متفوقاً على تفكير الفيلسوف في مسألة العمل .

سأقول اذن ـ مقتفياً آثار بارتولي ـ ما يلي :

١ ـ إن حضارة العمل هي قبل كل شيء **اقتصاد عمل** ، حيث تحل إدارة الخطة ادارة عقلانية محل قوانين السوق ، وحيث يعزل النقد والسعر من وظيفتها كمنظمين للاقتصاد تنظيماً عفوياً مزعوماً ، وحيث يتم توزيع الخيرات ـ موقتاً على الأقل ـ على قدر العمل ، بل على قدر انتاجية العمل : فلا يكون الأجر بعد ذلك ثمناً للعمل ـ السلعة ، بل يكون وسيلة لاقتسام النتاج الاجتماعي الصافي . وبهذا المعنى يكون اقتصاد العمل متحققاً الآن في البلدان التي تأخذ بالتخطيط الاشتراكي ، ولا يكون في الاقتصاد الرأسمالي الحديث الا على شكل نزعة ، وبوجه خاص في صورة حق منظم للعمل ، وتغيير في بنية الأجر ، وسياسة في إيجاد العمل للجميع .

٢ ـ إن اقتصاد العمل لا يصنع حضارة عمل اذا لم يكن اقتصاداً للعمال أنفسهم ، أي اذا لم يدر العمال المعامل والصناعات بأنفسهم ادارة فعلية ، واذا لم يكتسبوا بالتالي كفاءة الادارة ومسؤوليتها ، بحيث يفلتون من سيطرة جديدة ، سيطرة الاختصاصين والتكنوقراطيين .

٣ ـ إن اقتصاد العمل يكون خديعة اذا لم يكن ايضاً ديمقراطية عمل أي اذا لم يشارك العمال على الصعيد الدستوري في بنية (الدولة) .

ألا تتضمن حضارة العمل ، والحالة هذه ، أكثر من إدماج النقابات في جهاز الدولة ؟ بل ألا تتضمن مجموعة كاملة من نزع المركزية ، والانقسامات ، وتعارض السلطات ، مختلفة اختلافاً كبيراً عن بنية الدولة المركزية التي فرضتها مرحلة التصنيع على أنظمة الاقتصاد الاشتراكية ؟ بهذا المعنى لم توجد بعد حضارة عمل في أي مكان ، وإن كان اقتصاد العمل قد احتل مكانه الآن في قسم من العالم ، بل إلى حد ما في كل مكان من العالم .

٤ ـ وأخيراً أضيف أن **حضارة العمل هي حضارة فيها تتكون ثقافة جديدة انطلاقاً من العمل** . إن التداخل الاجتماعي بين المهن والوظائف ـ ذلك التمازج الذي يكبحه الانقسام الى طبقات كبحاً عظيماً ، دون أن يمنعه منعاً باتاً ـ لا يمكن الا أن يكون له ترجيع هائل في ثقافة الشعب . فعندما يصل العمال بسرعة ، ليس الى ادارة الاقتصاد والدولة وحسب ، بل الى المهن العلمية والحرة ولا سيما الى التعبير الادبي والفني ، يحدث بالضرورة تجديد للثقافة باتجاه العمق **على نحو مستقل** حتى عن اتجاه الثقافة اتجاهاً ايديولوجياً . إن الثقافة الحديثة بحاجة الى ان تشفى من الضار والمصطنع والنرجسية بوجود مفكرين وفنانين ممتزجين بعالم العمل . فيمكن لها أن تكتشف مرة أخرى عواطف أخوية ، وموضوعات أشد متانة وأكثر طراوة في الوقت نفسه تحررها من النزعة البيزنطية . اذن ، فان حضارة العمل تتضمن أيضاً هذا التصحيح لبؤس الكلام بفضائل العمل .

إن موضوع حضارة العمل ـ اذا اخذ بكل أبعاده ـ من شأنه أن يحدث ارتكاساً لعالم العمل على عالم الثقافة ، وذلك بالتداخل الاجتماعي للمهن والوظائف . وهذا هو الحد الشرعي الذي لا يستطيع تجاوزه ، اذ يخشى من تعرضه لتزييفين : قوام الأول جعل الثقافة في مجملها تمجيد المشروع التقني ، وبكلام أصرح عاملاً من عوامل التصنيع . واذا كان

قوام حضارة العمل هو نشر انموذج انسان كفي في مجال الانتاج تستأثر به كلياً الانجازات التقنية او مشروع للانتاج الجماعي ، انسان يفترسه، بالاضافة الى ما تقدم، الاستعمال اليومي كنتاج العمل الاجتماعي ، فانه يجب علينا ان نرفض هذا الانسان الذي أصبح صنماً جديداً علينا ان ندهش امامه لأنهم توجوه بعنوان (حضارة العمل) .

وقوام التزييف الثاني الخلط بين ثقافة أوحى بها العمل وغذاها العمال، وثقافة ذات اتجاه ايديولوجي . هذا الخطر هو الصورة القصوى للخطر السابق ذكره . ففي مرحلة اقامة نظام اشتراكي - وهي مرحلة تتوافق توافقاً طبيعياً مع مرحلة تصنيع مريع - يريد جهاز الدولة أن يخضع الثقافة برمتها لمشروع التطبيق الاشتراكي وأن يفرض على الجماعة تصور العالم الذي يتصدر هذا المشروع.

ذلك ان حضارة العمل اذ ذاك لم تعد تلك التي ينعكس فيها العمل على القول، ولكن تلك التي ليس للقول فيها سوى وظيفتين : العمل نفسه وايديولوجية الدولة التي تبني الاشتراكية . ان تحليلنا لجدل العمل والقول ينبهنا الى ان حضارة فقدت متنفسها، في التجاوب بين الوظيفة النقدية والشاعرية للقول من جهة ووظيفة العمل بوصفه منتجاً من جهة أخرى ، هي حضارة حكم عليها بالجمود حكماً مؤجل التنفيذ . ان حضارة لا تحتفظ بحركيتها ، الا اذا تبنت الكلام مغامرة، وجعلت بالتالي من الخطأ حقاً هو بمثابة وظيفة سياسية لا غنى عنها . ،عليها أن تدفع خطر الكلام ثمناً للخدمة التي يقدمها الكلام للعمل .

الخدمة التي يقدمها الكلام للعمل :

هذه الخدمة التي يقدمها الكلام للعمل تبقى بعد زوال « ضياع » العمل

الاجتماعية في نظام الأجور ، لأنها تجيب على المشكلات الأكثر استمراراً والتي تطرحها « موضوعية » الانسان في عمل متناه يزداد تجزؤاً ورتابة بالتدريج . وما من شيء يمكن أن يكون أكثر شؤماً من انكار هذه المشكلات باسم مهمات أكثر الحاحاً تتصل بـ « نزع ضياع » العمل : فكل تفكير وكل عمل ينبغي له أن يرتب درجات في العمق ، تبعاً للأخطار الملحة ، ولكن تبعاً أيضاً للأخطار الدائمة .

١ ـ أرى خدمة أولى يقدمها الكلام في العمل نفسه بصفته مصححاً لتقسيم العمل . اننا نبتر هنا من جديد مجموعة كاملة من الهموم التي يهتم بها علم النفس الاجتماعي في العمل الصناعي . ففي أدنى الدرجات تتوافق هذه الوظيفة التصحيحية للكلام مع دور التسلية والثرثرة في المصانع ، حيث المهمات محطمة ورتيبة حتى انه من الأفضل المضي بالآلية الى غايتها ، ودفع العمل دفعاً كاملاً الى ضرب من التيقظ العصبي ، وشغل فكر العامل بمجيء آخر ثرثرة ، وأحاديث ، وموسيقى ، و ـ لم لا ؟ ـ محاضرات تثقيفية الخ .. (١) وفي درجة أسمى تتخذ هذه الوظيفة التصحيحية صورة ادراك اجمالي لمراكز العمل في المصنع ، وفهم لتسلسل العمليات التي تجري في المشروع بل وفي الأسواق في انحاء العالم . فهذا الادراك وهذا الفهم لمجمل الانتاج، هما مثل « كلمة باطنية » تحدد مكاناً للعمل المجزأ وتهبه معنى . وفي درجة أكثر سمواً تتوحد هذه الوظيفة التصحيحية مع تكوين مهني متعدد الفعاليات يفسح المجال أمام تبادل مراكز العمل والنضال ضد عملية (تفكك الشخصية) الناتجة عن الآلية . ها نحن نرى أن جدلنا ، جدل

---

(١) فريدمان : الى اين يمضي العمل الانساني ، « سماعات على الآذان » . ص ٢٠٧ وما يليها .

العمل والكلام ، يقودنا أيضاً الى قلب المشكلات التي يثيرها التعليم التقني بالذات، ذلك التعليم ذو الوجهين الضروريين وأولهما ملتفت نحو التكوين المهني المتخصص ، والثاني نحو الثقافة العامة . ان التكوين الأكثر نفعية ، منذ الآن ، قيمة ثقافية بمجرد أن ينيط المهارة اليدوية بمعرفة نظرية من نمط نفسي - رياضي . ويكمل الأدب والتاريخ « فتح » التكوين المهني على العالم، ويؤكدان أن التعليم التقني ثقافة حقاً .

وفي أسمى الدرجات، تكون مكانة العمل التصحيحية، هي تلك التي تسبغ عليه معنى اجتماعياً . فليس من قبيل المصادفة أن تكون كتب، ككتاب **رأس المال مثلا** ، في أصل الثورات الحديثة . وأخيراً فان قول المرء عمله، يرقى به الى مستوى كلام الانسان السياسي . لأنه ليس السياسي - عندما لا يكون في السلطة - إلا فاعلية الكلمة المخيفة ، شأنه في ذلك شأن الواعظ . وهذا هو جانب الحقيقة في هذه الحكمة العميقة لجورج نافيل Navel التي يرويها فريدمان (Friedmann) عنه : « إن هنالك حرفاً عالياً لا يبرأ الانسان منه الا بالمشاركة السياسية » .

٢ - والخدمة الثانية التي يقدمها الكلام هي **التعويض** عن تقسيم العمل باحداث (أوقات للهو) . إن وقت اللهو سيغدو شيئاً فشيئاً المشكلة الكبرى في الحضارة ، كالعمل نفسه .

فبالكلام - وبالرياضة أيضاً ،وبالمخيمات ، وبالتحرف (Bricolage) الخ . . - يمكن أن يُعاد التماس المفقود مع الطبيعة ، ومع الحياة ، ومع العنصر الخام، بطريقة جديدة . ولعله يمكن بالكلام - على صعيد اكثر عمقاً - الاهتداء إلى ايقاع زماني كامل اكثر امتداداً ، واكثر عفوية ، وأكثر استرخاء من إيقاع الحياة الحديثة المرهق .

والعالم الحديث عالم تزداد فيه سبل الفراغ وتنمط بنسبة ازدياد التقنيات التي كانت في نطاق آخر قد جددت الانتاج تجديداً ثورياً ، كما جددت المواصلات والعلاقات الانسانية كلها . ان معنى (اللهو) نفسه الذي ظفرنا به ظفراً شاقاً – باختصار يوم العمل – سيكون رهناً إلى حد كبير بنوعية الكلام الانساني ، باحترام الكلام الانساني ، في السياسة والرواية ، في المسرح والمحادثة . لأنه ماذا يفيد الانسان أن يربح حياته بالعمل ، ويخسر روحه باللهو ؟ لهذا لاينبغي لبناء (المدينة) الاشتراكية أبداً ان يغرق الكلام في « بوق » الدعاوة والثرثرة الايديولوجية . ولهذا أخيراً يجب أن تأخذ (المدينة) الاشتراكية على عاتقها أخطار الكلام الحر ، اذا كانت لاتريد أن تحطم الانسان روحياً، ذلك الانسان الذي تبنيه مادياً .

٣ – وللكلام ، فضلا عن ذلك ، وظيفة تأسيس إزاء فعاليات الانسان العملية كلها ، هي الوظيفة « النظرية » في مجملها . فما من تقنية لاتكون معرفة مطبّقة ، وما من معرفة مطبّقة لاتتعلق بمعرفة نبذت في البداية كل تطبيق ليس بوسع العمل أن يلخص الانسان . ذلك أن النظر (Theoria) هو علّة وجوده أيضاً . ويمضي هذا النظر المؤسّس من الرياضيات الى الأخلاق ، ومن النظرية الفيزيائية الى التاريخ، ومن العلم الى الأنطولوجيا. وتطرح المشكلات الجذرية كلها نفسها في موقف يعلّق الاهتمام النفعي والرغبة الملحة في الحياة . لهذا مامن حضارة تستطيع البقاء بلا (فسحة حركة) متروكة للنظر المنزه عن المنفعة ، وللبحث بغير تطبيق مباشر أو ظاهر . لقد أطلقنا آنفاً اسم التربية على حركة التلاؤم وعدم التلاؤم في تكوين الانسان . والجامعة ينبغي ان تكون مكان هذا النبض بالذات . ولهذا فإنه من الانصاف أن يطلب منها في وقت واحد

أن تلبي ، بأفضل مما تفعل ، حاجات المجتمع الحديث ، وأن تستمر دون خجل في تقاليد الجامعة (Universitas) العتيقة ، التي ستبدو أكثر من أي وقت مضى وسيلة ممتازة للسيطرة على عبوديات العمل الحديث ، بشرط أن يكون دخولها في متناول العمال جميعاً .

٤ – وأخيراً ، فان الكلام يتاخم ، وراء وظيفة التأسيس هذه ، وظيفة إبداع : فمن خلال الأدب والفنون يستمر اختراع واكتشاف معنى للانسان لاتستطيع أي (جماعة) أن تخطط له ، معنى هو المغامرة الرئيسية بالنسبة إلى الفنان وبالنسبة الى المجتمع الذي يسانده . ليس المبدع الحقيقي من يقول حاجات البشر في عصره التي سبقت معرفتها ، الحاجات التي سبق للرجل السياسي أن أعلنها ، بل هو الذي تكون آثاره تجديداً بالقياس الى معرفة الواقع الانساني المحصاة والمقبولة . هنا نعثر من جديد على الوظيفة الشاعرية في الكلام ، تلك الوظيفة التي انتهى اليها تأملنا في قدرة الكلام ونحن ندرك الآن أنها في أصل مشروع حضارة ، بل في أصل مشروع حضارة عمل . .

ترى ، هل يصل الكلام هنا ، هو ايضاً ، إلى ابداع اساسي؟ وهل يتطابق لاهوت الكلام في النهاية مع لاهوت العمل ؟ ربما . غير انهذا يعني قبل كل شيء أننا بحاجة ، في تناهينا الانساني ، إلى العمل وإلى الكلام على حد سواء ، لكي نتخذ مكاننا في معنى كلام مبدع لسنا نحن إياه .

لهذا فان كل حضارة انسانيـــة هي حضارة عمل « و » حضارة قول في آن معاً .

تشجيع استثمار

رؤوس الأموال العربية

يحيى عرودكي

انعقد في أوائل شهر آذار الماضي في الكويت مؤتمر خبراء التمويل العرب من أجل بحث سبل ووسائل تشجيع رؤوس الأموال العربية في الأقطار العربية . وكانت حكومة الجمهورية العربية السورية قد أصدرت مع مطلع عام ١٩٧٠ مرسوماً تشريعياً بشأن تشجيع استثمار رؤوس أموال المغتربين ورعايا الدول العربية في مشاريع التنمية الاقتصادية في هذا القطر .

وتأتي هذه الخطوة الهامة وانعقاد هذا المؤتمر في الوقت الذي يشتد فيه الاقبال في بلدان عديدة من العالم على اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية ، وتقدم الاغراءات المختلفة الأشكال والأساليب للحصول عليها .

ذلك أنه لايمكن عند البحث عن الشروط الضرورية لنجاح أية تنمية اقتصادية واجتماعية في بلد من البلدان ، اغفال أهمية ودور رؤوس الأموال في ذلك . واذا كانت هذه حقيقة لايمكن أن يمارى فيها ، فإن المشكلة تبدأ بالنسبة لتحديد مصادر التمويل اللازم لهذه التنمية . ولكن حتى بالنسبة لهذا الموضوع ، فان هناك حقيقة أخرى لايمكن الاغضاء عنها ، تتمثل بضرورة الاعتماد بالدرجة الأولى على الامكانات والموارد والمدخرات الوطنية ، وأن الاتجاه للحصول على رؤوس الأموال من الخارج - عند عدم كفاية تلك الامكانات والموارد والمدخرات - يعتبر عملاً اقتصادياً صحيحاً ، واجراء مالياً سليماً طالما أنه يقع في حـــدود امكانات البلاد للوفاء آجلاً من جهة ، ومبرأ من الشروط والقيود التي تتنافى والمصلحة العليا الوطنية من جهة اخرى . ذلك أنه ليس لدى جميع البلدان القدرة على القيام بمختلف مشاريع التنمية بمواردها وطاقاتها ومدخراتها الخاصة ، حتى تلك الغنية بالنفط أو بغيره ذلك من الثروات الثمينة الأخرى ، كاليورانيوم والذهب ومعادن النحاس والألمنيوم . فان استثمار مثل هذه الثروات في العديد من البلدان ، ومنها الاقطار العربيـــة أو تلك في القارات الأفريقية أو الآسيوية أو أمريكا اللاتينية ، كان دائماً ينتظر تقدم رؤوس الأموال الأجنبية للقيام بمثل هذه الاستثمارات .

ولكن ما هو حجم رؤوس الأموال الذي ينبغي لكل بلد أن يحصل عليه - من المصادر الاخرى غير الوطنية - لمثل هذه الاستثمارات ؟؟

مشكلة اخرى لابد من معالجتها في ضوء المبادىء والأسس العلميـــة والموضوعية بهذا الصدد . فهناك - بالدرجة الاولى - يأتي موضوع تحديد حجم الاستثمارات . فهذا التحديد من شأنه تحديد حجم رؤوس الاموال - التي يجب استيرادها من الخارج - في ضوء الفرق بين حجم الاستثمارات وحجم المدخرات

الوطنية . ثم يأتي بعد ذلك التعرف على مدى القدرة على التسديد والوفاء في حدود سلامة البلد الاقتصادية .

مدى حاجة البلدان العربية لرؤوس الاموال :

إن البلدان النامية ، ومنها الاقطار العربية ، ومعظمها قد حصل على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، قد وجدت على طريق مسيرتها نحو تعزيز هذا الاستقلال والحفاظ عليه ، وتحررها من التبعية الاقتصادية التي ربطتها بها الدول الاستعمارية أو الاحتكارات الامبريالية التي لها مطامع في بلدانها وأراضيها ، أن الخلاص من الفقر والمرض والجهل ، وهي أمراض التخلف التي تسود هذه البلدان ، وذلك من أجل توفير مستوى المعيشة الجيد لشعوبها والحياة الافضل لهم ، واللحاق بركب الامم التي سبقتها في هذا المجال ، يقتضيها أن تقوم بعملية تنمية اجتماعية واقتصادية سريعة ومتوازية في بلادها . ولكن تحقيق مثل هذه العملية ليس من السهولة التي تستطيع أن تقوم بها مثل هذه البلدان بامكاناتها ومواردها الخاصة ، فهي تحتاج الى رؤوس أموال ضخمة ، والمدخرات الوطنية لدى كل منها ضئيلة ومحدودة تبعاً لانخفاض دخولها القومية ومعدلات نمو هذه المداخيل من جهة ، وكذلك نقص الخبرات والكوادر الفنية اللازمة لمثل هذه التنمية ، تبعاً لامراض التخلف التي تسود هذه البلدان من جهة اخرى . ولهذا كان لابد للبلدان المذكورة من أن تتطلع نحو البلدان الاخرى للحصول على الاموال اللازمة لمساعدتها على تحقيق خططها وبرامجها الانمائية . كما أن هذا الوضع وهذه الحاجة يجعلان أصحاب رؤوس الأموال في البلدان الأخرى يتطلعون للفوز ببعض مشاريع التنمية تلك ، تبعاً للظروف والشروط التي تتهيأ من خلال أوضاع هذه

البلدان ومدى التغيير الاجتماعي والتقدم الاقتصادي اللذين تمكنت من تحقيقهما، وكذلك علاقاتها مع الدول الاخرى، ومدى الأهمية التي تعلق على تلك المشاريع أو ما ينتظر أن ينشأ من ظروف وأحوال جديدة يمكن أن يكون لها تأثير على مستقبل هذه البلدان ودورها في المجتمع الدولي.

وما من شك في أن هناك العديد من الظروف والأوضاع التي تطبع بسماتها البلدان العربية، مما يجعل عملية استيراد رؤوس الأموال من الخارج واستثمارها فيها، ذات أهمية خاصة لهذه البلدان، ولمصادر هذه الأموال بآن واحد.

فالبلدان المذكورة، كما سبق القول هي من البلدان المتخلفة، فهي بحاجة ماسة للعديد من مشاريع التنمية الزراعية والصناعية وتطوير الحياة الاجتماعية. وبعضها يملك من الثروات الطبيعية الدفينة كالنفط والفوسفات والكبريت والبوتاس والحديد كميات ذات قيمة اقتصادية كبيرة، وبعضها الآخر له، بالاضافة الى ذلك، موقعه الجغرافي والستراتيجي الهام بالنسبة لبقيـــة أجزاء العالم. وتبعاً لذلك وللظروف الأخرى التي بدأت تظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانيـــة في العلاقات الدولية، فان تطلع أصحاب رؤوس الأموال لاستثمار أموالهم في البلدان العربية بات يتميز ليس فقط في الحصول على قدر واف من الأرباح والفوائد المادية، وانما يخفي وراءه غايات وأهدافاً اخرى في كثير من الأحيان. كما أن تطلع هذه البلدان نحو الحصول على هذه الأموال، لم يعد يتم بمثل السهولة التي كان يجري بها في أوائل الخمسينيات من هذا القرن مثلاً، بسبب الوعي الجماهيري، والحرص على عدم الوقوع في شباك الأخطبوط الاستعماري المتمثل بالشركات والاحتكارات والمشاريع الاستعمارية. ولهذا كان لابد لهذه البلدان من أن تتطلع

نحو المصادر الأكثر أماناً،والتي تجنبها الوقوع في العديد من تلك المزالق والمهاوي التي قد تعرضها لضياع حريتها .

مصادر رؤوس الاموال الخارجية :

وهكذا يتضح مدى الأهمية للمصادر التي يمكن أن تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشاريع التنمية العربية ، كما تتبدى قيمة اختيار مثل هذه المصادر .

فما هي المصادر التي يمكن اللجوء اليها عادة للحصول على التمويل اللازم من الخارج في العالم ؟ ؟

هناك نوعان من المصادر باتا تقليديين : العام والخاص . والأول يتمثل في المؤسسات والهيئات الدولية التي قامت وانشئت لمثل هذه المهمة ، وفي الحكومات التي تقدم القروض والمساعدات للبلدان الأخرى ، أو في المؤسسات المصرفية التي اسست لهذه الغاية . والثاني يتمثل في رؤوس الأموال الخاصة التي يعمد أصحابها لاستثمارها في اقامة بعض المشروعات الصناعية أو السياحية أو الانشائية أو غير ذلك من المشاريع الأخرى،أو عن طريق ايداعها في المصارف أو الاسهام ببعض الشركات والمؤسسات المالية أو الادخارية .

● المؤسسات والهيئات الدولية : وهذه تتمثل بتلك التي تعتبر احدى أجهزة هيئة الأمم المتحدة ، كمجلس المعونة الفنية ، ومنظمة العمل الدولية ، منظمة التغذية (فاو) ، اليونسكو ، منظمة الطيران الدولية ، منظمة الصحة العالمية (يونيسيف) ، الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية ، الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، منظمة التنمية الصناعية (يونيدو) ، الصندوق الخاص للأمم المتحدة ، صندوق الأمم المتحدة للتنمية ، صندوق الأطفال الدولي . كما

تتمثل بالمؤسسات المالية الدولية ، كالبنك الدولي لاعادة العمران والانماء ، والمؤسسة الدولية للتنمية ، صندوق النقد الدولي .

ولا يتسع المجال هنا للخوض في أنظمة هذه المؤسسات والهيئات ، وشروط الحصول على الأموال والقروض منها ، إنما يمكن القول ، أن ما حصلت عليه البلدان العربية من هذه المصادر يعتبر محدوداً . كمساعدات برنامج الغذاء العالمي ، أو ما قدم من القروض لتنفيذ بعض مشاريع الطرق والمواصلات . وإذا كان صحيحاً أن مثل هذه المساعدات لاتعتبر منتجة بالمعنى الصحيح ، إلا أنها مكنت البلدان التي حصلت عليها من أن تستخدم جانباً من مواردها من العملات الأجنبية التي كان لابد لها من صرفها لشراء حاجتها من المواد الغذائية في استيراد بعض ما تحتاجه من بضائع التكوين الرأسمالي ، مما ساعدها في عملية التنمية التي تقوم بها .

● المصادر الحكومية : ولا يقف الأمر عند الدول الشرقية أو الغربية ذات النظم الاشتراكية أو الرأسمالية . إلا أنه من الواضح أن رؤوس الأموال التي تقدمها كل منها تختلف في شكلها وأهدافها عن الأخرى . فالبلدان الاشتراكية تستهدف اظهار التقدم التقني والفني الذي وصلت اليه هذه البلدان ، ولذلك فهي تتوخى أن تنجز أو تسهم في انجاز مشاريع انمائية محددة كالسد العالي وسد الفرات ومحطات توليد الكهرباء ومعامل الفوسفات ... الخ . في حين أن البلدان الأخرى لاتعطي هذا الموضوع نفس الأهمية ، وانما تنطلق من اعتبارات أخرى يأتي في مقدمتها النواحي الاستثمارية والسياسية والستراتيجية .

ويجري عادة تقديم هذه الأموال والقروض بشكل بضائع أو خدمات فنية ، من خلال اتفاقات التعاون الاقتصادي والفني التي تحدد فيها مقادير القروض التي تعطى للمشاريع ، وقليلاً ما تكون اموالاً نقدية .

● المؤسسات الائتمانية والمصرفية : ولقد أدى الاتجاه نحو التنمية في معظم بلدان العالم الثالث في أعقاب الحرب العالمية الثانية الى قيام العديد من المؤسسات الائتمانية والمصرفية ، التي تستهدف تقديم التسهيلات والقروض الائتمانية لهذه البلدان ، والحصول على الفوائد التي تعطيها مثل هذه العمليات المجزية . ولقد قامت في البلدان العربية بعض هذه المؤسسات كالصندوق الكويتي للتنمية ، وبعض المؤسسات المصرفية في لبنان والمغرب والأردن . والصندوق العربي للتنمية الذي أحدث مؤخراً بين الدول العربية، والذي لم يبدأ نشاطه حتى الآن. ثم المصرف العربي الفرنسي ، الذي تتخذ الاستعدادات لافتتاحه في باريس في وقت قريب .

● رؤوس الأموال الخاصة : وهي تتمثل في الأموال العائدة للاشخاص الطبيعيين والاعتباريين التي تطرق باب المشاريع الانمائية في البلدان النامية بالدرجة الأولى - ومنها البلدان العربية - للحصول على الأرباح التي قد لا تحصل عليها في مجالات الاستثمار الأخرى . وتتجه عادة نحو الاسلوب التقليدي للاستثمار المتمثل في استخراج المواد الخام كالبترول والتعدين . أو لانشاء الأنابيب ومحطات الضخ اللازمة لاستغلال النفط ، أو شركات النقل ومعامل النسيج والاسمنت والاسمدة والكهرباء وغيرها ، أو تقديم الخبرات التقنية في مجال البحث والتنقيب أو التشغيل لمثل هذه المشاريع .

رؤوس الاموال العربية :

بدأت منذ الخمسينات من هذا القرن تتوفر في بعض الأقطار العربية ، ولا سيما البترولية ، مصادر تمويل لا يستهان بها ، وبدأ

أصحاب هذه الأموال يفتشون عن وجوه استثمارها ، واتجه بعضهم الى عدد من البلدان العربية كلبنان ، والعربية المتحدة ، وسورية ، فأقام العمارات ، أو ساهم ببعض المصارف أو المشاريع الصناعية أو السياحية أو الزراعية أو غير ذلك من وجوه الاستثمار الأخرى ، في حين اتجه بعضهم الآخر نحو ايداع أمواله في المصارف الأجنبية وخاصة في لندن ونيويورك وزوريخ . وقدرت فوائض الأموال العربية الموجودة في هذه البلدان بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بنحو (٥٥٠) مليون جنيه استرليني ونحو (٤٥٠) مليون جنيه استرليني بالدولارات الامريكية بالاضافة الى رؤوس الأموال الخاصة التي لم تتوفر الاحصاءات الصحيحة عنها والتي قدرت بنحو (٧٥٠) مليون جنيه استرليني من مختلف العملات .

كما قدرت الاستثمارات التي حققتها رؤوس الأموال الكويتية في الخارج خلال عشر سنوات بنحو (١،١) مليار دولار .

وعلى هذا كان يلاحظ أن بعض الأقطار العربية غنية برؤوس الأموال وتبحث عن المجالات اللازمة لاستثمارها فيها ، وبعضها الآخر كان بحاجة ماسة لتمويل مشاريعه الانمائية ويفتش عن المصادر التي يمكن أن يحصل عن طريقها على المبالغ التي يحتاج اليها لهذه الغاية . وكل من الفئتين كان يتحمل بعض الخسائر في ابتعاده عن الآخر وفي تعامله مع الجهات الأجنبية . فأصحاب رؤوس الأموال كانوا يودعون أموالهم في المصارف الانكليزية أو الأمريكية أو السويسرية بمعدلات فوائد هي أقل مما يمكن أن تحققها لهم المشاريع التي يمكن أن تستثمر فيها في الاقطار العربية . وهذه الأقطار كانت تؤدي لتلك المصارف أو غيرها من مصادر التمويل الأجنبية الأخرى معدلات عالية من الفوائد ـ أو عوائد الأرباح ـ لقاء ما تحصل عليه من الأموال اللازمة لتنفيذ مشاريعها الانمائية .

الصعوبات والضغوط والمتاعب :

الأمثال التي قيلت في رؤوس الأموال والصفات التي تلصق بها - (رأس المال كالزئبق يهدأ حيث تتوفر له ظروف الاطمئنان) ، (رأس المال جبان لا يقيم إلا حيث يتيسر له الأمان) - إنما تعبر عن أن رأس المال يحاول دوماً الفرار من المتاعب والصعوبات والضغوط التي تسيء اليه أو تهدد وجوده ونشاطه أو تحد منها . وهو يطمع في الحصول على الجو الملائم والأمان ، وبكلمة مختصرة يفتش دوماً عن الثقة التي يطمئن اليها ويرتاح لأن تسود الأماكن التي يعمل فيها . وعندما يقال الثقة فذلك لا يعني الاستقرار ، فقد يفتش المال عن المناطق التي لا يتوفر فيها مثل هذا الاستقرار ، لأن امكانات الحصول على معدلات عالية من الفوائد والأرباح تكون ميسورة اكثر ، ولكنه يفتش عن الثقة في هذه المناطق قبل كل شيء.

ولقد حاولت بعض رؤوس الأموال العربية أن تستوطن في بعض الأقطار العربية منذ الخمسينيات من هذا القرن ، كما سبق القول ، ووجدت في لبنان ، والعربية السورية ، والعربية المتحدة ، والعراق ، المجال الذي تبحث عنه لاستثماراتها . غير أن تطور الأوضاع في هذه البلدان ، كالأحداث التي جرت في لبنان عام ١٩٥٨ وتطبيق التأميم والرقابة على النقد وعلى انتقال رؤوس الأموال في الأقطار الثلاثة الأخرى ، قد جعل أصحاب تلك الاستثمارات وغيرهم من أبناء هذه الأقطار يتجهون الى بلدان عربية أخرى كليبيا والمغرب وبعض الامارات على الخليج العربي . كما أن عودة الاستقرار الى لبنان منذ أوائل الستينيات والسياسة التي سار عليها في فتح أبوابه على مصراعيها وقيام مؤسسات مصرفية عديدة فيه الى جانب التوسع في اقامة المشاريع العمرانية والصناعية والزراعية ، قد أعادت الثقة الى أصحاب رؤوس الأموال العربية للعودة الى لبنان مرة أخرى . غير أن

أزمة المصارف التي بدأت ببنك انترا عام ١٩٦٦ ، ثم الغارة الصهيونية على مطار بيروت عام ١٩٦٨ قد جددت الخوف لدى أصحاب رؤوس الأموال، خصوصاً وقد وجدت في اغراءات فروع المصارف الأجنبية والشركات الادخارية القائمة في لبنان ماشجعها على استثمار تلك الأموال في الخارج .

وبصورة عامة يمكن القول : إن أسباب هروب رؤوس الأموال بصورة عامة والعربية منها بصورة خاصة من بعض الاقطار العربية يتلخص بالآتي :

- عدم الاستقرار في المنطقة العربية نتيجة العدوان الاستعماري الصهيوني على فلسطين والأقطار العربية المجاورة لها ، وحالة الاستعداد المتواصل للمعركة من جهة ، وحالة الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير العربية وتطلعها نحو الثورة على الأوضاع القائمة في عدد من أقطارها باعتبارها تمثل العوائق التي تحول دون تقدمها من جهة أخرى .

- ماحققته بعض الأقطار العربية من انجازات في مجال التحويل الاشتراكي ، وقيام قطاع عام لديها في الزراعة والصناعة والتجارة وشركات التأمين والمصارف ، بشكل أصبح معه التمييز بين حدود القطاع المذكور والقطاع الخاص يكتنفه بعض الغموض .

- الخوف من أن تمتد قرارات وتدابير التأميم إلى المشاريع والنشاطات التي تعمل فيها رؤوس الأموال العربية ، وكذلك من الحيلولة دون خروجها بالطريق الرسمي الى البلدان الواردة منها أو إلى غيرها من البلدان الأخرى .

● ارتفاع معدلات الفوائد في الاسواق العالمية عنها في البلدان العربية ، ونشاط فروع شركات التوظيف الأجنبية الموجودة في عدد من البلدان العربية وخاصة في لبنان – ومعظمها اميركية – في دفع رؤوس الأموال العربية نحو الاتجاه الى البلدان الأوربية والأميركية ، خصوصاً بعد أزمة بنك انترا في لبنان وذيولها المعروفة .

● عدم توفر الضمانات اللازمة لدى أكثر البلدان العربية بالنسبة لرؤوس الأموال الأجنبية الخاصة . وعدم وجود قوانين ونصوص تشريعية صريحة بهذا الشأن بحيث تهيء جو الثقة التي تبحث عنه في مجال نشاطاتها .

وإذا كانت هذه الأسباب هي أهم مايبديه أصحاب رؤوس الأموال في تبرير عدم الاقبال على استثمار أموالهم في بعض الأقطار العربية ، فان ذلك يجب ألا يحول دون ذكر المخاطر التي يتعرض اليها هؤلاء في ايداع أموالهم في المصارف الأوربية أو الأميركية أو في المشاريع التي تقوم بها تلك البلدان في أراضيها أو في الدول الأخرى :

١ – فهناك خطر تخفيض أسعار العملات الأجنبية التي تحولت اليها رؤوس الأموال العربية ، كالجنيه الاسترليني والفرنك الفرنسي ، وليست الخسارة التي اصابت هذه الأموال عند تخفيض هاتين العملتين في عام ١٩٦٧ و ١٩٦٩ بخافية ، حتى أنه قدرت خسارة الكويت نتيجة تخفيض الجنيه الاسترليني بنحو مئة مليون جنيه .

٢ – وهناك خطر التعرض للضغوط الاقتصادية والسياسية من حكومات البلدان المودعة لديها ، وذلك بهدف استنزاف هذه الأموال ، وتحويلها لمنفعة تلك البلدان ، عن طريق عقد صفقات لبيع سلع وخدمات غير انتاجية . كصفقة

السلاح التي أجرتها بريطانيا مع ليبيا بنحو مئة مليون جنيه استرليني ، والتي جاءت ثورة الأول من أيلول ١٩٦٩ لتكشف خفاياها فتلغيها .

٣ ـ ثم إن خطر التأميم أو الحيلولة دون خروج رؤوس الأموال وفوائدها من البلدان الاجنبية أو خطر التجميد أو غير ذلك من التدابير المماثلة، يمكن أن يقع أيضاً في البلدان المذكورة كما يقع في البلدان العربية أو أية بلدان أخرى .

التعاون العربي في مجال استثمار رؤوس الاموال :

من الطبيعي ألا تكون أهمية توفير رؤوس الأموال ، اللازمة لعمليات التنمية في البلدان العربية، بخافية على الدول العربية . وانطلاقاً من ادراكها لهذه الأهمية، فقد بادرت جامعة الدول العربية الى طرح مشروع اتفاقية خاصة بشأن تسديد مدفوعات المعاملات الجارية وانتقال رؤوس الأموال بين هذه الدول بتاريخ ١٩٥٣/٩/٧ . كما طرحت مشروع اتفاقية خاصة لانشاء المؤسسة المالية العربية للانماء الاقتصادي برأس مال قدره عشرون مليوناً من الجنيهات بتاريخ ١٩٥٧/٦/٣، ثم رفع هذا المبلغ الى خمسة وعشرين مليون جنيه في عام ١٩٦٤ . ولكن هاتين الاتفاقيتين لم توضعا موضع التنفيذ لعدم اكتمال الاجراءات القانونية لذلك حتى الآن . وقد تم في عام ١٩٦٧ وضع اتفاقية جديدة تحل محل الاتفاقية الثانية وتقضي بانشاء الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية برأس مال قدره مئة مليون دينـــار كويتي . وتجري الاتصالات وتبذل الجهود ، بين الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وحكومات الدول الأعضاء ، للاسراع باخراج هذا الصندوق الى حيز التنفيذ في أقرب فرصة .

وكانت حكومة الكويت قد أنشأت خلال الستينات الصندوق الكويتي للتنمية ، وقد قام بتمويل عدد من المشروعات الانمائية في بعض البلدان العربية كالعربية المتحدة وتونس والأردن والعراق ، وقد جرت مؤخراً أبحاث بينه وبين القطر العربي السوري لتمويل مشروع صوامع الغلال . وبالاضافة الى ذلك،فان اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية المرعية الإجراء بين عدد من الأقطار العربية منذ حزيران ١٩٦٤ - والتي انبثقت عنها السوق العربية المشتركة - تهدف الى تحقيق حرية انتقال رؤوس الأموال بين بلدان الدول الأعضاء . وقد توصلت هذه البلدان الى انشاء اتحاد للمدفوعات فيما بينها من شأنه تيسير بلوغ هذه الغاية ، ومن المقدر أن يبدأ العمل بموجبه في وقت قريب .

وكذلك فإن هنالك اتفاقيات ثنائية بين بعض الأقطار العربية بشأن القروض الحكومية فيما بينها ، كاتفاق القرض بين السعودية وسورية الموقع عام ١٩٥١ والذي جدد وعدل في عامي ١٩٦١ و ١٩٦٤ ، والاتفاقية المعقودة بين العربية المتحدة والعراق في عام ١٩٥٨ ، والاتفاقية المعقودة بين الكويت والعراق عام ١٩٦٤ ، ثم الاتفاقية المعقودة بين العربية المتحدة والكويت عام ١٩٦٦ .

ان هذه الخطوات والجهود التي تمت بين مجموعة البلدان العربية - سواء داخل نطاق جامعة الدول العربية أو مجلس الوحدة الاقتصادية العربية أم بصورة ثنائية بين هذه الدول - على الرغم مما يبدو من أهميتها في تسهيل وتشجيع استثمار رؤوس الأموال العربية في البلدان المذكورة ، إلا أنها في الواقع كانت محدودة النتائج ، وضيقة الأثر والمفعول . وهذا ما دعا مؤتمر غرف التجارة والصناعة والزراعة العربية الى المطالبة باتخاذ الاجراءات اللازمة لتحقيق مثل هذا التشجيع . كما أن

مؤتمر وزراء الاقتصاد والمال والنفط العرب الذي انعقد عقب حرب حزيران ١٩٦٧ في بغداد ، قد وجد أن من بين السبل لزيادة التنمية الاقتصادية في البلدان العربية ورفع قدرة الدول العربية على مواجهة العدوان والصمود حتى النصر ، العمل على زيادة استثمار رؤوس الأموال العربية في المشاريع الانمائية العربية . ولهـذا فقد أوصى الدول الاعضاء بالاسراع بانشاء الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وحث على بحث ودراسة السبل المؤدية لتشجيع مثل هذه الاستثمارات . ونتيجة لذلك ، فقد اجتمع في الكويت في تشرين الثاني من العام المذكور خبراء التمويل العرب في حلقة دراسية لهذه الغاية ، وقد توصلوا الى عدد من المقترحات بهذا الشأن .

أسس ومبادىء تشجيع الاستثمارات العربية :

لم يكن هناك بين خبراء التمويل العرب الذين حضروا حلقة الكويت الآنفة الذكر ، وحتى ممثلي المؤسسات المالية الدولية التي دعيت للمشاركة فيها ، أدنى تباين في الرأي حول العوامل التي تؤثر في سير الاستثمارات بشكل عـام والاستثمارات العربية بشكل خاص ، وهي تتلخص بأمرين : أحدهما يتعلق بأصحاب رؤوس الأموال ويتمثل بحرصهم على حرية انتقال استثماراتهم ، والآخر يتعلق بالبلد المستثمرة لديه هذه الأموال ويتمثل بحرصه على تحديد مدى مشاركتها في المشاريع لديه وبالحيلولة دون سيطرتها عليها ثم بالمحافظة على ميزان مدفوعاته بشكل لا يتأثر معه نتيجة تلك الحرية .

وكان من الطبيعي أن تدور الأبحاث حول ايجاد أفضل السبل للتوفيق بين هذه المصالح الى أبعد قدر ممكن . وقدمت الحلقة توصيات بهذا الشأن تتلخص بالآتي :

١ - إن من أهم السبل الكفيلة بتحقيق تدفق الأموال مابين مختلف الدول العربية أن توفر لها الضمانات الكافية لتتمتع بما تحتاج اليه من الطمأنينة والاستقرار وتهيأ لها الحوافز المناسبة للتوظيف في شتى المشروعات الاقتصادية .

٢ - ان مايتوفر حالياً من الضمانات والحوافز بفضل التشريعات الوطنية في الدول العربية ، على أهميته وفائدته ، يحتاج في المرحلة الراهنة من تطور العالم العربي ، الى تدعيمه بضمانات أخرى على صعيد المجموعة العربية بما يكفل تدفق الأموال فيما بينها ، خصوصاً وأن الروابط الوثيقة بين أعضاء هذه المجموعة تستدعي اضفاء معاملة خاصة للأموال الوافدة من دول عربية لأخرى .

٣ - إن اتفاق البلدان العربية على تشجيع الاستثمارات فيما بينها وعلى ضمانها وتأمينها ومنحها ماتحتاج اليه من مزايا وحوافز، يجب ألا يمس بتاتاً سيادة أي دولة ، بل ويعتبر مظهراً من مظاهر هذه السيادة .

٤ - ومن ناحية أخرى ، فإنه وان كان من حق الدولة المضيفة التأميم أو المصادرة أو نزع الملكية في حدود المصلحة العامة ، فان من حق المستثمر في هذه الأحوال ، الحصول على التعويض العادل والفعال ، وألا تصادر أمواله بدون تعويض إلا نتيجة لاجراءات جنائية طبقاً للقانون . وكذلك ، فإن من حقه تحويل عوائد الاستثمارات واسترداد رأس المال المستثمر والديون أو مبالغ التعويض المستحقة في الحدود المناسبة لأوضاع الدولة الاقتصادية وفي ضوء مبدأ التعويض العادل والفعال . هذا بالاضافة الى حقه بالاقامة في الدولة المضيفة اذا استدعى نشاطه ذلك ، وفي حدود التشريعات المنظمة للهجرة والاقامة لديها.

٥ - ضرورة اتفاق الدول العربية على انشاء مركز لتسوية المنازعات

المتعلقة بالاستثمارات الخاصة الوافدة من دول عربية الى دولة عربيـــة اخرى ، وذلك عن طريق التوفيق والتحكيم . وان يكون حق اللجوء الى هـذا المركز مفتوحاً لكل من المستثمر والبلاد المضيفة للاستثمار ولهيئة تأمين الاستثمارات .

٦ – ضرورة اتفاق الدول العربية على انشاء هيئة للتأمين على الاستثمارات العربية الخاصة ، تغطي المخاطر السياسية وفي مقدمتها التأميم والمصـــادرة ونزع الملكية والخطر الناجم عن نزاع مسلح أو اضطرابات سياسية محلية ، وكذلك المخاطر المصرفية وفي مقدمتها فرض نظم الرقابة على الصرف أو التشديد فيها ومنع تحويل الفوائد والأرباح واسترداد رأس المال المستثمر والديون ، باستثناء حالة تخفيض العملة .

٧ – أن يقتصـــر التأمين على الاستثمارات الجديدة والتوسع في الاستثمارات القائمة الذي يتناول : الاستثمارات المباشرة ، القروض ، اوراق الحافظة ، حقوق الملكية ، الحقوق المعنوية كالحقوق الناشئة عن العلامات المسجلة او عقود الادارة .

ومع مانالته هذه التوصيات والمبادىء والاسس من اهتمام واعتبار من الأجهزة المختصة ، في كل من الدول العربية ، وفي جامعة الدول العربية ، ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، فانها لم تخرج بعد الى حيز التنفيذ .

تشجيع استثمار رؤوس الاموال في القطر العربي السوري :

لم تكن أهمية تشجيع استثمار رؤوس الأموال العربيـــة في المشاريع الانمائية العربية لتخفى على المسؤولين في القطر العربي السوري . كما لم يكن ببعيد عن الأذهان ماتتطلبه عملية هذا التشجيع من ضرورة توفير الضمانات والثقة التين تتطلع اليها هذه الاستثمارات . ولقد عبر عن ذلك المنهاج المرحلي عندما نص على أن

« حكومة الثورة تجد من الواجب سن التشريعات اللازمة لتنظيم وضع الاستثمارات الخاصة – الوطنية والعربية والاجنبية – لتحديد العلاقة بين الأطراف المعنية ، وبالشكل الذي يضمن خضوع تلك الاستثمارات للسيادة الوطنية وخطة الدولة العامة وقوانينها المرعية من جهة ، ويضمن الحقوق الأساسية لأصحاب تلك الاستثمارات من جهة اخرى » .

ولقد كان من الطبيعي ، بعد أن سار هذا القطر خطوات ملموسة في عملية التحويل الاشتراكي وفي إقامة قطاع عام له أهميته ودوره البارز في تطوير البلاد وفي التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي باشرها ، أن يتطلع نحو الاستفادة من رؤوس الأموال غير الوطنية للاسهام في تحقيق وتنفيذ المشاريع التي تتضمنها الخطة الخمسية الثالثة التي سوف تبدأ اعتباراً من مطلع عام ١٩٧١ ، باعتبار أن المدخرات المحلية في هذا القطر لا تكفي وحدها لهذه الغاية ، شأنه في ذلك شأن غيره من البلدان النامية الأخرى .

ولهذا فقد صدر في مطلع العام الحالي المرسوم التشريعي الخاص بتشجيع استثمار وتوظيف رؤوس أموال المغتربين ورعايا الدول العربية . وقد حددت بموجبه المشاريع الانمائية التي يحق لهذه الاستثمارات ان تمارس فيها نشاطها . وكذلك الميزات التي تتمتع لها والتي من شأنها توفير الثقة والطمأنينة اللتين تبحث عنها الأموال في أية منطقة من العالم لتعمل في جوهما . ويمكن تلخيص أحكام التشريع الجديد بالآتي :

● اتاحة الفرصة أمام رؤوس أموال المغتربين ورعايا الدول العربية لاستثمارها في مشاريع التنمية الاقتصادية أو توظيفها في المصارف العربية السورية ، وذلك لأجل لا يقل عن ثلاثة أشهر ووفق الخطة العامة للدولة والقوانين المرعية .

وقد اعتبرت من مشروعات التنمية الاقتصادية بهذا الصدد مشروعات النقل أو السياحة أو الانشاءات العقارية أو الصحية وسائر الاستثمارات الأخرى التي تقرها لجنة خاصة ، نص هذا التشريع على تأليفها لهذه الغاية . وقد استثنيت من هذا المفهوم الثروات الطبيعية والصناعات المنافسة للصناعات المحلية .

● اعتبرت من الأموال التي يتناولها التشريع الجديد ، النقد الأجنبي المحول الى سورية بطريق أحد المصارف المقبولة مالم يكن هنـــاك التزام قانوني بتحويله أو من أجل مواجهة مصاريف الاقامة . وكذلك الآلات والمعدات الصناعية والزراعية والمواد الأولية اللازمة لاقامة المنشآت أو التوسع فيهـــا ، ووسائل النقل المستوردة من الخارج للاستثمار في هذه المشروعات . والحقوق العينية اذا كانت مملوكة لأجانب مقيمين في الخارج ومعدة للاستثمار في المجالات الآنفة الذكر ، بالاضافة الى الارباح التي يحققها المشروع ، إذا زيد بها رأس ماله الأصلي أو استثمرت في مشروع آخر .

● أحدثت لجنة خاصة لهذه الغاية برئاسة وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية وممثلين عن عدد من الوزارات ذات العلاقة ومصرف سورية المركزي لقبول المشاريع التي تستفيد من هذا التشريع ، واعتماد الحصص العينية والحقوق المعنوية التي ترد من الخارج لهذه الغاية ، وابداء الرأي في تحويل الأرباح الى الخـارج ، وبحث جميع الأمور التي يكلفها وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية القيام بها .

● منحت حق الاستفادة من أحكام هذا التشريع ، الأموال المستثمرة أو الموظفة في سورية من قبل الأشخاص الطبيعيين والاعتباريين من رعـــايا الدول العربية والمغتربون من أصل سوري أو عربي ، سواء احتفظوا بجنسيتهم الأصلية أو حصلوا على جنسية بلد المهجر ، وسواء كانوا مقيمين في سورية أو غير مقيمين فيها .

● منحت الأموال التي تستفيد من هذه الأحكام الميزات التالية :

١ - السماح بتحويل (٧٥ ٪) من الأرباح الناتجة عن استثمار تلك الأموال الى الخارج .

٢ - السماح باعادة تحويل الأموال الى الخارج - في حال تعذر استثمارها لصعوبات عملية - وكذلك باعادتها بعد انقضاء فترة خمس سنوات على بدء استثمار المشروع بنسبة لا تزيد عن ٢٥ ٪ سنوياً مع امكان تخفيض المدة الى ثلاث سنوات وزيادة النسبة الى ٥٠ ٪ بموافقة خاصة من وزير الاقتصاد .

٣ - امكانية منح تلك الأموال ميزات اضافية أخرى وفقاً لشروط تحدد بمراسيم خاصة في ضوء طبيعة المشاريع المراد اقامتها وأهميتها .

٤ - تمتع الأموال المستثمرة وفقاً لهذا التشريع، بجميع الحقوق والميزات التي يتمتع بها رأس المال المحلي فيما يتعلق بالاعفاءات القانونية المقررة من الضرائب والرسوم .

٥ - ضمان مصرف سورية المركزي تحويل رؤوس الأموال المشار اليها - الى الخارج - وفق أحكام هذا التشريع .

٦ - ألا يؤدي أي تشريع لاحق الى انقاص الحقوق والميزات المقررة، بموجب أحكام هذا المرسوم التشريعي، لرؤوس الأموال الموظفة والمشاريع المقامة بالاستناد لأحكامه .

● جواز استخدام الخبراء ورؤساء العمال من الأجانب المستقدمين من الخارج للعمل في المشاريع المقامة وفق هذا التشريع في سورية على ألا يزيد عددهم عن (٢٥ ٪)، أما باقي العاملين (٧٥ ٪) فيجب أن يكونوا من السوريين . وقد سمح

للأولين بتحويل حصة من الأجور أو المرتبات أو المكافآت التي يحصلون عليها الى الخارج في الحدود المقررة من قبل مصرف سورية المركزي .

تلك هي أهم أحكام واتجاهات التشريع الجديد الذي صدر في هذا القطر بصدد تشجيع استثمار وتوظيف رؤوس أموال المغتربين ورعايا الدول العربية . وجدير بالملاحظة أنه قد قصر أحكامه على قسم من الأموال التي ترد من خارج القطر ، فلم يشمل الأموال الأجنبية كلها . وهذا لا يعني أنه لا يحق لهذه الأموال أن تعمل في سورية ، وانما يعني أن التسهيلات والميزات التي تضمنها لن تستفيد منها . وكذلك فانه لم يتضمن ما يحدد الجهة التي يمكن اللجوء اليها لتسوية المنازعات المتعلقة بالاستثمارات الواردة وفقاً لأحكامه . ولكنه من ناحية أخرى لابد من التأكيد على أنه تضمن نصوصاً صريحة وواضحة فيما يتعلق بتوفير الضمانات اللازمة بشأن اعادة رؤوس الأموال المذكورة الى خارج القطر واعطائها نفس الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها رؤوس الأموال الوطنية .

ويأتي هذا التشريع في الوقت الذي سوف يطرح فيه على مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في دورته القادمة موضوع حرية انتقال رؤوس الأموال بين الدول الأعضاء، ووضع اتحاد المدفوعات العربية موضع التنفيذ، واقامة هيئة لضمان الاستثمارات العربية، وهيئة تسوية للمنازعات بشأنها ، بما يساعد على السير في بحث هذه المواضيع والوصول الى اقرار الصيغ الملائمة بصددها بالسرعة الكافية .

الأمم المتحدة

وأزمة الدول الصغيرة جداً

محمد سمير منصوري

ان « مسألة مدى اشتراك البلدان المختلفة في النشاطات الدولية المنظمة تبرزه تلك الظاهرة المدنية المتمثلة في نشوء دول صغيرة جداً ، وذلك أن ضآلة حجمها ومحدودية مواردها قد تثيران مشكلة عسيرة من حيث الدور الذي ينبغي أن تحاول القيام به في الحياة الدولية ... ولقد حان في اعتقادي ذلك الوقت الذي قد تود فيه الدول الأعضاء اجراء بحث أدق لمعيار قبول الأعضاء الجدد في ضوء الآثار البعيدة التي تنطوي عليها الاتجاهات الحاضرة .[1] »

---

(١) وثيقة الأمم المتحدة رقم ٦٠٠١/ A الملحق آ ـ

بهذه الكلمات التي أوردها أوثانت، الأمين العام للأمم المتحدة ، في مقدمة تقريره السنوي المؤرخ ١٩٦٥/٩/٢٠ ، طرح على بساط البحث بصورة علنية وواضحة موضوعاً كان يتردد على ألسنة ممثلي بعض الدول ، وخاصة الكبرى منها، في أحاديثهم الخاصة في أروقة المنظمة، كلما حصلت احدى المناطق أو المستعمرات الصغيرة على استقلالها ، وتقدمت بطلب للانتساب الى عضوية منظمة الأمم المتحدة كدولة مستقلة ذات سيادة .

في الواقع أنه عند قيام الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ لم يكن هذا الموضوع محل تساؤل أو نقاش ، اذ كانت المنظمة ، أو بالحري ، كان في اذهان واضعي الميثاق جمع شمل « الدول » القائمة آنذاك والتي شاركت في مؤتمر سان فرنسيسكو لعام ١٩٤٥ ، أو التي وقعت اعلان الأمم المتحدة الصادر بتاريخ ١٩٤٢/١/١ ، لتعمل مجتمعة على (انقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب) وأن تضم قواها كي تحافظ على السلم والأمن الدوليين . ولم يكن وجود بعض الدول الصغيرة – كلوكسمبرغ وايسلندا – بين الدول الاعضاء الاوائل في المنظمة ليثير أية مشكلة أو يلفت النظر ، لقلة عددها . غير أن التطور الدولي السريع والهام الذي حصل بعد قيام المنظمة ، وخاصة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين ، والذي جعل رياح الاستقلال تعصف في مختلف أرجاء المعمورة وتهز شعوب المستعمرات وتقوض أركان الادارات المستعمرة ، لتجليها عن مناطق وأقاليم حكمتها واستغلتها دونما حق سنين طويلة ، من جهة ، ومساعي المنظمة نفسها ، من جهة ثانية ، ونشاطها من أجل تصفية الاستعمار سواء عن طريق منح الحكم الذاتي والاستقلال للأقاليم غير المستقلة الخاضعة لنظام الوصاية ، حيث تمكنت المنظمة من اعطاء الاستقلال لثمانية أقاليم من أصل أحد عشر اقليماً كانت تحت الوصاية ، أو عن

طريق لجنة تصفية الاستعمار، التيوجدت لتعمل على تنفيذقرار الجمعية العامةرقم ١٥١٤ الدورة١٥ المؤرخ في١٤/١٢/١٩٦٠ والذي يعلن عن (ضرورة وضع حد بسرعة وبدون قيد أو شرط للاستعمار بجميع صوره ومظاهره) ويؤكد حق الشعوب في تقرير مصيرها وحقها في الاستقلال ؛ كل هذه العوامل ساعدت على انشاء الدول الصغيرة ، والتي لم يكن انشاؤها هو الهدف الرئيسي لمحاولات تصفية الاستعمار ، بل ان ذلك كان النتيجة الطبيعية والنهاية غير المقصودة للتطور الحتمي . ولقد عبر مندوبو كثير من الدول خلال مناقشاتهم وكلماتهم عند البحث في قضايا الشعوب المستعمرة ، عن قناعتهم بأن (اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة) لم يميز بين الشعوب التي تعيش على أراض صغيرة ، وتلك التي تعيش على أراض كبيرة ، فيما يتعلق بحق هذه الشعوب في حريتها واستقلالها . وهذه المبادىء واحدة ومتعادلة وتطبق على الاقاليم كافة بغض النظر عن حجمها أو عدد سكانها أو حالتهم الاقتصادية أو الاجتماعية . وان حق تقرير المصير يجب أن يقرر بحرية وبدون شروط أو قيود تربطه . وهكذا وجدنا أنه ، في عام ١٩٦٠ وحده ، حصلت قبرص مع ست عشرة دولة أفريقية على استقلالها ، واصبحت دولاً ذات سيادة ، كما انضمت الى المنظمة الدولية لتشارك في أعمالها جنباً الى جنب وعلى قدم المساواة مع الدول التي كانت تستعمرها . وتتابع انضمام الدول الحديثة الاستقلال عاماً بعد عام ، مما ساعد على زيادة توسع عضوية المنظمة حتى بلغ عدد أعضائها في مطلع عام ١٩٦٩ مقدار ١٢٦ دولة . ويمكن القول إنه ظهر منذ عام ١٩٦٠ تغيير جوهري في تشكيل منظمة الأمم المتحدة ، وبدا ذلك واضحاً في كمية عدد الدول الجديدة الصغيرة النامية التي أصبحت تملك أصواتاً في الجمعية العامة تمكنها من إيجاد أغلبية كافية ،

عندما تتفق ، لاتخاذ ماتراه من توصيات وقرارات . ويتجلى اتفاقها بصورة واضحة في مسائل ادانة وشجب الاستعمار والمطالبة بسرعة تصفيته نهائياً ، وكذلك في المسائل الاجتماعية والثقافية والمساعدات الاقتصادية للدول النامية نفسها ، حيث تمكنت من فرض بعض الالتزامات على الدول المتقدمة لمساعدة الدول النامية .

قبل الاستطراد في البحث ، وتحديد الاوجه القانونية والعملية لهذه الازمة ، لابد من مواجهة المعضلة الأولى في هذا المجال ، ألا وهي تعريف المقصود بالدول الصغيرة والصغيرة جداً . لاشك ان « الصغر » ليس عدداً وان مايسمى « الصغر » هو أمر نسبي وليس مبدأ بحد ذاته ، يتضح بالمقارنة ، وكل معيار يتخذ للقياس يعتبر تحكيمياً أو اختيارياً . ومن الصعب وضع الحدود التي ينطلق منها « الصغر » وتلك التي ينتهي عندها ، ثم ماهو نوع المعيار الذي يجب أخذه لتحديد هذا المفهوم ؟ هل يعتبر عدد سكان دولة مامعياراً لصغر الدولة؟ وماهو الحد الأدنى للسكان حتى يمكن القول إن الدولة ليست صغيرة جداً ؟ أما اذا اعتبرنا مساحة الدولة معياراً ، فلابد في هذه الحالة من التمييز بين مساحة الدولة المجزأة الى عدد من الجزر المتفرقة ، ومساحة الدولة التي تضم صحارى او مناطق غير مأهولة . ثم هل يجب أن تؤخذ كثافة السكان بعين الاعتبار؟ أم الموارد الأولية التي تملكها الدولة ؟ ام محصلة هذه النقاط مجتمعة ؟ ومن ناحية أخرى هل يمكن الاكتفاء بالتعابير التي تطلقها بعض الدول بين الفينة والأخرى وفي المناسبات من كونها دولة « صغيرة » ، او من اجماع بعض الدول على وصف دولة (ب) مثلا بأنها دولة صغيرة ؟ تلك أسئلة عديدة لم يحاول أحد أن يضع لها أجوبة في الأمم المتحدة ، إلا أن الامين العام للمنظمة أورد في مقدمة تقريره السنوي المؤرخة في ١٩٦٧/٩/١٥ قوله : « انما أفكر في أمر تلك الدول التي يشار اليها باسم الدول الصغيرة جداً ،

أي الكيانات الصغيرة الى حد استثنائي من حيث المساحة والسكان والموارد البشرية والاقتصادية، والتي أخذت تضم الآن الى عداد الدول المستقلة[1]». ومن هذا يبدو أن الأمين العام يميل الى جمع عدد من المعايير، في محاولة وضع التعريف. الا أن ذلك يبقى الامر غامضاً ايضاً: اذ هل تقبل الدول الاعضاء كافة تعريف الأمين العام دونما تحفظ او ملاحظة؟ ولقد تابع الأمين العام قائلاً: « لاشك أن نيل أصغر الاقاليم للاستقلال أمر مشروع كل المشروعية، حيث أنه إنما يمارس حقه في تقرير المصير، نتيجة للتطبيق الفعال لقرار الجمعية العامة ١٥١٤ / الدورة ١٥، بشأن منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة، الا أنه يبدو من المستحسن مع ذلك، ان نميز بين الحق في الاستقلال ومسألة العضوية التامة في الامم المتحدة. ان هذه العضوية قد تفرض من ناحية أعباء أثقل من اللازم على الدول الصغيرة جداً، وقد تؤدي من الناحية الأخرى، الى اضعاف الامم المتحدة نفسها» .

عمدت مؤخراً بعض دوائر الأمم المتحدة الى دراسة موضوع وضع الدول الصغيرة جداً، وقدمت عدداً من الاحصائيات والقوائم المختلفة، ولقد تضمنت احدى تلك القوائم اسماء ٩٦ دولة او اقليم يبلغ تعداد سكان كل منها أقل من مليون نسمة. واتضح من هذه القائمة أنها تضم:

١ - سبع عشرة دولة مستقلة وعضواً في الأمم المتحدة،

٢ - تسعة وعشرين اقليماً غير متمتع بالحكم الذاتي، وتتعهد الدول المسؤولة عن ادارة كل منها بتقديم معلومات عن تطور أحوال الاقليم الى الامم المتحدة تمهيداً لوصوله الى مرحلة الحكم الذاتي والاستقلال،

٣ - اقليمان مشمولان بنظام الوصاية،

---

(١) وثيقة الامم المتحدة ٦٧٠١/A الملحق P

٤ - أما ما تبقى من مقاطعات وأقاليم فان الدول المسيطرة عليها لاتعترف بأنها مستعمرة ، وانما بعضها يعتبرها اجزاء منها (كما تدعي البرتغال بأن مستعمراتها انما هي اقاليم لما وراء البحار) ، أو مرتبطة بمعاهدات خاصة ، او تحت الحماية (كالبحرين وقطر) ، او مرتبطة باتحادات مختلفة مع دول أخرى . وتورد - في الصفحتين التاليتين - جدولا مختصراً ومكثفاً لعدد من تلك الجداول يوضح أهم الدول والأقاليم التي لايتجاوز عدد سكانها مليون نسمة مع الوضع الحالي لكل منها .

ان القاء نظرة على الجدول السابق يوضح مدى نسبية صغر بعض الدول. ولا شك ، كما ذكر الامين العام ، أن هذه الدول الصغيرة جداً والتي تظهر حديثاً، لن تسمح لها مواردها بالمساهمة في أعمال المنظمة ، وأنها رغم رغبتها وتطلعها الى العضوية الا أنها لا تملك العنصر البشري أو المورد الاقتصادي لتجابه به مسؤولياتها والتزاماتها. كما لا جدال أيضاً في أن المشاركة بعضوية المنظمة تسير جنباً الى جنب مع المسؤولية والواجبات العديدة التي يفرضها الميثاق والتي لايمكن تفاديها .. وتتركز المشكلة الرئيسية في تحمل المسؤوليات بالنسبة لمثل هذه الدول ، في الالتزامات المالية والمساهمة في موازنة المنظمة الدولية . فمثلاً إن الحد الادنى لمساهمة أي دولة في ميزانية المنظمة محدد بنسبة ٤٠,٠٪ من مجمل صافي الموازنة . وتدفع حالياً هذه النسبة ستون دولة من أصل ١٢٦ دولة ، من بينها القطر العربي السوري . وقد بلغ المترتب على كل دولة من هذه الدول لقاء هذه النسبة في موازنة المنظمة لعام ١٩٦٧ مقدار ٤٣٫٥٠٠ دولار ، الا أن عدداً من ممثلي الدول الصغيرة اعترض على هذه النسبة ، وطالب مندوب غامبيا عام ١٩٦٧ بتخفيضها . وذكر بأنه من الصعب على دولته الاستمرار في العضوية اذا كان عليها أن تستمر في دفع الحد الأدنى المقرر المطلوب ، علماً بأنه ليس لغامبيا مندوب دائم لدى الأمم المتحدة تخفيفاً للنفقات.

اسم الدولة او الاقليم	تقدير عدد السكان لدى الأمم المتحدة عام ١٩٦٦	المساحة كم٢	كثافة السكان في كم ٢	الوضع الحالي	صلتها بالأمم المتحدة
ترينداد وتوباكو	١٫٠٠٠٫٠٠٠	٥٫١٢٨	١٩٥	مستقلة منذ ١٩٦٢/٨/٣١	عضو منذ ١٩٦٢/٩/١٨
ليسوتو	٨٦٥٫٠٠٠	٣٠٫٣٤٤	٢٨	مستقلة منذ ١٩٦٦/١٠/٤	عضو منذ ١٩٦٦/١٠/١٧
الكونغو (برازافيل)	٨٥٠٫٥٠٠	٣٤٢٫٠٠٠	٢٫٤	مستقلة منذ ١٩٦٠/٧/١٥	عضو منذ ١٩٦٠/٩/٢٠
موريشيوس	٧٨٠٫٠٠٠	٢٫٠٩٦	٤٣٧	مستقلة منذ ١٩٦٨/٥/١٢	عضو منذ ١٩٦٨/٩/٢٤
غوايانا	٦٦٢٫٠٠٠	٢١٤٫٩٧٠	٣	مستقلة منذ ١٩٦٦/٥/٢٦	عضو منذ ١٩٦٦/٩/٢٠
قبرص	٦٠٣٫٠٠٠	٩٫٢٥١	٦٥	مستقلة منذ ١٩٦٠/٨/١٦	عضو منذ ١٩٦٠/٩/٢٠
جنوب غربي أفريقيا (ناميبيا)	٥٨٤٫٠٠٠	٨٢٤٫٢٩٢	٠٫٧	تحت رعاية جنوب افريقيا	أنهت الامم المتحدة الوصاية ووضعتها تحت اشراف مجلس خاص
بوتسوانا	٥٨٠٫٠٠٠	٥٦٩٫٥٨١	١	مستقلة منذ ١٩٦٦/٩/٣٠	عضو منذ ١٩٦٦/١٠/١٧
مسقط وعمان	٥٦٥٫٠٠٠	٢١٢٫٣٧٩	٢٫٦	اتفاق خاص مع بريطانيا	
الكويت	٤٩١٫٠٠٠	١٦٫٠٠٠	٣٠	مستقلة منذ ١٩٦١/٦/١٩	عضو منذ ١٩٦٣/٥/١٤
فيجي	٤٧٨٫٠٠٠	١٨٫١٦٩	٢٦	مستعمرة بريطانية	
غابون	٤٦٨٫٠٠٠	١٦٧٫٦٦٧	١٫٧	مستقلة منذ ١٩٦٠/٨/١٧	عضو منذ ١٩٦٠/٩/٢٠
سوازيلاند	٣٩٠٫٠٠٠	١٧٫٣٦٣	٢٢	مستقلة منذ ١٩٦٨/٩/٦	عضو منذ ١٩٦٨/٩/٢٤

اسم الدولة أو الاقليم	تقدير عدد السكان لدى الأمم المتحدة عام ١٩٦٦	المساحة كم٢	كثافة السكان في كم ٢	الوضع الحالي	صلتها بالأمم المتحدة
غامبيا	٣٣٦,٠٠٠	١١,٢٩٥	٢٩	مستقلة منذ ١٩٦٥/٢/١٨	عضو منذ ١٩٦٥/٩/٢١
لوكسمبرغ	٣٣٥,٠٠٠	٢,٥٨٦	١٢٩	مستقلة منذ عام ١٨١٥	عضو منذ ١٩٤٥/١٠/٢٤
مالطا	٣١٧,٠٠٠	٣١٦	١٠٠٣	مستقلة منذ ١٩٦٤/٥/٣١	عضو منذ ١٩٦٤/١٢/١
غينيا الاستوائية	٢٧٢,٠٠٠	٢٨,٠٥١	٩,٦	مستقلة منذ ١٩٦٨/١٠/١٢	عضو منذ ١٩٦٨/١١/١٢
برمادوس	٢٤٥,٠٠٠	٤٣٠	٥٦٩	مستقلة منذ ١٩٦٦/١١/٣٠	عضو منذ ١٩٦٦/١٢/٩
ايسلندا	١٩٥,٠٠٠	١٠٣,٠٠٠	١,٩	مستقلة منذ ١٩١٠/١٢/١	عضو منذ ١٩٤٦/١١/١٩
البحرين	١٣٩,٠٠٠	٥٩٨	٣١٣	محمية بريطانية	
جزر الباهامز	١٤٠,٠٠٠	١١,٤٠٦	١٢	مستعمرة بريطانية	
جزر هاموا الغربية	١٣٠,٠٠٠	٢,٩٣٠	٤٤	مستقلة منذ ١٩٦٢/١/١	ليست عضوا في المنظمة
جزر المالديف	١٠١,٠٠٠	٢٩٨	٣٣٨	مستقلة منذ ١٩٦٥/٧/٢٦	عضو منذ ١٩٦٥/٩/٢١
قطر	٧١,٠٠٠	٢٢,٠١٤	٣,٢	محمية بريطانية	
دومنيكا	٦٨,٠٠٠	٧٥١	٩٠	منضمة الى بريطانية	
بيرمودا	٥٠,٠٠٠	٥٣	٩٤٣	مستعمرة بريطانية	
امارة موناكو	٢٣,٠٠٠	١,٥	١٥,٣٣٣	مستقلة منذ ١٨٦١	ليست عضوا في المنظمة
جمهورية سان مارينو	١٨,٠٠٠	٦١	٢٩٥	مستقلة منذ ١٨٦٢	ليست عضوا في المنظمة
ناورو	٦,٠٠٠	٢١	٢٨٥	مستقلة منذ ١٩٦٨/١/٣١	ليست عضوا في المنظمة
الفاتيكان	١,٠٠٠	٠,٤٤	٢,٢٧٢	مستقلة منذ ١٩٢٩	ليست عضوا في المنظمة

لم يضع الميثاق شروطاً خاصة للعضوية ، بل ان المادة الرابعة منه جاءت تنص على أن (العضوية في الامم المتحدة مباحة لجميع الدول الأخرى المحبة للسلام، والتي تقبل بالالتزامات التي يتضمنها هذا الميثاق ، والتي ترى الهيئة أنها راغبة في تنفيذ هذه الالتزامات وقادرة على ذلك) . ولقد درج مجلس الامن على اصدار التوصيات بقبول طلبات انتساب الدول التي ترده دون أن يبحث في مدى مقدرة تحمل تلك الدول لمسؤولياتها، أو مدى صحة وجدية رغبتها في تنفيذ هذه الالتزامات ، مكتفياً بالتصريح الذي تقدمه كل دولة ، والذي تعبر فيه عن رغبتها في تحمل تلك المسؤوليات واستعدادها لذلك . ولا نعتقد بوجود ما يمنع المجلس من الاستمرار في نهجه السابق في قبول الدول الجديدة سعياً وراء تحقيق منظمة الامم المتحدة لمبدأ « العالمية » في عضويتها ، وهو ما تطالب به غالبية دول المنظمة ، ومنهم الجمهورية العربية السورية ، خاصة وأنه لا يمكن لاي منظمة تعمل من أجل تحقيق أهداف الميثاق الشاملة أن تنجح في تحقيق تلك الاهداف ما لم تمثل فيها جميع الشعوب والثقافات والحضارات المختلفة القائمة في العالم الحديث .

يطرح بعضهم — بديلاً عن العضوية الكاملة للدول الصغيرة — عدداً من الاقتراحات منها :

١ ـ العضوية بدون حق التصويت (عضو مشارك) .

٢ ـ العضوية المحدودة، بحيث يسمح للدول الصغيرة بالمشاركة في المواضيع التي تمس مصالحها وتهمها مباشرة .

٣ ـ العضوية بصفة مراقب .

٤ ـ على الرغم من صراحة المادة الثانية من الميثاق والقائلة : إن المنظمة تقوم على (مبدأ المساواة المطلقة بين جميع أعضائها) ، فإن بعض الدول — ولا سيما

الكبرى – تطرح فكرة الغاء مبـــدأ « المساواة القانونية في السيادة ، بين أعضاء المنظمة ، وما يتبع ذلك بالضرورة من الغاء مبدأ « لكل عضو صوت واحد » ، منطلقين من أن الوضع الحالي يقوم على اساس السيادة المتساوية لدول غير متساوية . هذا التعديل لا بد وأن يفسح المجال لاقرار مبدأ التصويت على أساس « الوزن » ، أي إما على أساس نسبة السكان ، أو نسبة مساهمة الدولة في ميزانية المنظمة ، أو كليهما معاً ، وزيادة عدد أصوات الدولة كلما ارتفع وزنها العددي او المالي .

غير أن بعض الدول ، وخاصة الصغرى ، تعارض ايجاد حدود لقبول أعضاء جدد على أساس حجم وصغر العضو الجديد . وترى أنه لا يوجد ما يدعو الى حجب العضوية عن دول ستستقل في المستقبل، وسكانها يقاربون في العدد سكان دول أعضاء حالية في المنظمة ، فضلاً عن أن الفرق قائم في الوقت الحاضر في المنظمة بوجود دول كبيرة تقدر بمئات الملايين، ودول أخرى صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ شخص . وان دخول بضعة دول صغيرة اخرى لن يؤثر كثيراً في اخلال التوازن ، آخذين بعين الاعتبار أن بعضاً من دول المستقبل قد لا تطلب من تلقاء نفسها الانضمام الى المنظمة كما فعلت ساموا الغربية وناورو مثلا ، فضلاً عن ان تحديد شروط جديدة للعضوية الآن من شأنه أن يؤدي الى اجراء تعديل جوهري في ميثاق وتكوين المنظمة الحاليين بشكل يحد من عضوية الدول الصغيرة الاعضاء حالياً ، وهذا أمر يصعب تحقيقه .

تلك بعض عناصر المشكلة التي يجري بحثها في أروقة وكواليس الامم المتحدة . والتي قد تتيه بين جدران المنظمة اسوة بغيرها من المشاكل التي لم تجد لها حلاً رغم تقادم السنين عليها ، ولا شك في أن علينا أن نقف الى جانب عدم ابعاد

الدول الصغرى عن الأسرة الدولية ، طالما أنها تجد نفسها راغبة في العضوية وتعتبر نفسها قادرة على القيام بالالتزامات المترتبة عليها . ولكن هذا يجب أن لا يمنعنا فضلاً عن ذلك عن محاولة ايجاد نوع من المساهمة والمشاركة تمارسه الدول التي لا ترى أن امكانياتها تسمح لها بالعضوية الكاملة ، أملاً في تقوية ودعم صلاتها بالامم المتحدة ونشاطاتها المختلفة ، وبالتالي ابقائها على اطلاع مستمر بالتطورات المختلفة في المجتمع الدولي .

على الأكياس

الى الصغير العزيز (و . ع)، الذي سألني:
« كيف ، ومتى ، بدأت الكتابة ؟ » .

حنّا مينه

لم يعد والدي ذلك المساء أيضاً ، كان قد ذهب ليبيع المشبّك[1] في قرى اسكندرون . ورأيته ، في الصباح ، يحمل الطبق النحاسي المليء بأقراص افعوانية صهباء من الحلوى ، فيركزه على رأسه ، فوق الكمكة القماشية ، ويرسم الصليب ، ويطلب ، رضى الوالدين ، ويرفع «السيبة» المتصالبة ، التي تفتح وتطوى ، فيعلقها بكتفه ، ويضع السلة الفارغة في مشجب زنده ، ويمضي مشيعاً بدعاء الام الخائفة ابداً من شيء مجهول ، وبدعائنا ، اخواتي الاكبر وانا الصغير ، في ان يعود وقد باع حلواه ، وحمل الينا الخبز والطعام ..

(١) الزلابية المبرومة .

وجلست والدتي في الضحى ، ترقع ثيابنا وتغني غناء حزيناً وتبكي . رأيتها من النافذة ،فدخلت . كانت قد فتحت الصندوق لاخراج بعض الألبسة ، واغتنمت فرصة غيابي فأخرجت فستاناً صغيراً لطفلة بنت سنتين ، هي اختي الصغرى التي ماتت منــــذ وقت قريب ، وجعلت تشمه وتبوسه . كانت تناجيها وكأنها لا تزال في الفستان الذي رأيتها فيه قبل ان تموت ، وسمعتها تقول لها : « يا حبيبتي ، لماذا رحلت بسرعة ؟ لماذا زعلت من امك ؟ الا تشتاقين اليها ؟ الا ترجعين ؟ ولن اراكِ ، بعد ، ابداً ؟ وهذا الفستان ، وهذه اللعبة (وكانت قد خاطتها لها من قماش) كل ما بقي منك ، اذن ؟ » .

انسلت ، فقبعت وراءها . بكيت أنا أيضاً . كنت ، مثلها ، بحاجة الى ذلك ، فسمعت شهقاتي والتفتت الي مذعورة . حاولت مسح دموعها ،وابتسمت بتشنج للتمويه علي « ياصغيري ! ـ قالت ـ ياولدي ! لماذا رجعت بسرعة؟اذهب والعب مع رفاقك ؟ » وغمرتني وقبلتني ، حضنت رأسي بصدرها . طمرته في عنقها فشممت ، آنذاك ، عطر الأمومة من العنق الحار بفعل التوتر والدمع ، وأحسست قطرات على صفحة خدي ، وبدأ تداعب خصلات الشعر الحرنوبي الذي يكلل رأسي ، ثم رفعت وجهي اليها .ونظرت في عيني . . كانتا حمراوين . . لم أكن قادراً على ضبط نفسي ولا أريد ، والدمع ينثال على خدي . . فقالت وهي تخرج نصف قرش من جيبها : « اذهب واشتر كعكة . . لا تبك . الرجال لايبكون » . سألتها : « والنساء؟ » فقالت « والنساء ايضاً ! » . . وصمت غير مقتنع. فقالت : « النساء . . احياناً ! » .

عند الظهر جبلت لنا « الفريفيرة » ، وهي نخالة البرغل مـــع البصل ، وارسلت شقيقتي فاستعارت قليلا من الزيت من الجيران . وسلقت بيضة ووضعتها

أمامي .. كنا خمسة حول طبق القش : والدتي وشقيقاتي الثلاث وأنا ، أما الشقيقة الرابعة فقد غادرتنا . لم أكن أعرفها .. ومن الهمس الذي يدور عرفت أن حادثاً وقع لها . كانت خادماً في أحد البيوت ثم فرت مع رجل وتزوجته ، أحسست أنها خالفت ارادة الأسرة فنفوها وتجنبوا في البيت ذكرها.. وكنت ، قبـــل ذلك ، قد رأيت عربة حنطور تذهب وتجيء على الطريق العام ، قرب حارتنا ، وتوقفت العربة ونزلت منها سيدة سألت الأولاد عن شيء .. فأشاروا إلي ، وركضت وحضنتني ، وقبلتني ، ودسّت في جيبي نقوداً ، واسرعت الى العربة فغابت ، وهرعت الى البيت فقصصت ماجرى على والدتي ، وللحال انطلقت نحو الطريق .. وانتظرت حيث أشرت لها ، انتظرت طويلاً ، لكن العربة لم تظهر ، فعادت كسيفة .. وأحسب انها بكت مراً في تلك الليلة ، واخـــذت النقود فاشترت بها شموعاً وبخوراً .. وعجبت من فعلتها ، فاوضحت لي : « هذه نقود ليست لك ! » فاحتججت : « لكنني لم أسرقها ! » فقالت : « هذه صدقة ، ولا أريدك أن تقبل صدقة من أحد » ، وأوصتني ألا اخبر والدي حتى لا يؤنبني ، ولا أقول ذلك لأحد أيضاً .

وهكذا وعيت على شقيقاتي الثلاث فقط . وقد رأيتهن ونحن حول طبق القش ، ينظرن الى البيضة أمامي برغبة وحسرة . كن قد تعلمن معاملتي كأخ ذي وضع ممتاز . وكان في وسعي أن آكل البيضة دون حرج ، ولكن شقيقتي الصغرى ، وقد ماتت بعد ذلك بسنوات ، لم تستطع الامتناع عن لمس البيضة المقشرة باصبعها ، وعندئذ تدخلت امي وقسمت لها جزءاً صغيراً منها .

في المساء تسمرت عيوننا على الدرب . ولم تطق الأم صبراً فخرجت من حينا المستقعي الى الطريق العام .. لم تعد الا بعد هبوط الظلام .. كنت راكعة

على الخوان ارقب عودتها مع الوالد من النافذة ، فلما رأيتها بمفردها جزعت ، وانكمشت وتكورت حيث انا ، فدخلت البيت واضاءت فانوس الغاز الواهن ، واغلقت الباب وجلست على الحصير وشقيقاتي حولها .

كان من عادة الوالد أن يسعل أو يتنحنح إذا عاد . يعرف اننا ، في الليالي التي يتأخر فيها ، آذان تصغي بكل طاقاتها ولهفتها الى ماينبىء بعودته سالماً . وسعلته ربما ، بشير وتطمين لقلوبنا الواجفة ، واذ نتأكد منها نتراكض الى الباب ، وكثيراً ما كنا نفرح بعودته ونأسى لمرآه خائباً ، حاملاً طبقه النحاسي وحلواه الكاسدة . وفي هذه الحال كنت اكابد هماً صموتاً . كان عذابه ينثال في صدري كذوب رصاص ، كبكاء والدتي على اختي الضائعة والاخرى الميتة ، كدخان فانوسنا الغازي حين تفرقع بلورته وليس لدينا سواها ، كنظرات الاخت الصغيرة الى الأم في الليالي التي تنام فيها بغير طعام .

وقالت والدتي تشجع نفسها : « سيعود مهما تأخر .. في أيام الصيف يقصد القرى البعيدة ، وينتظر حتى يبترد الجو » . فسألتها شقيقتي الكبرى : « ولماذا القرى البعيدة ؟ ألا يخاف ؟ » . فقالت الام : « لكي ينفق المشبك يابنتي .. القرى القريبة ليس فيها خير .. الفلاحون فقراء مثلنا ، والبائعون لا يصلون الى الجبال .. أبوك وحده يصل الى هناك .. يعرفونه ويقبلون عليه » . فعادت الشقيقة تسأل : « ويعود وحده في الليل ؟ وكيف ، في العتمة ، يعرف الطريق ؟ وانت ، في حكاياتك تقولين : الجبال ملأى بالجن والوحوش والمشلحين[1] ؟ » . فانتهرتها ، عندئذ ، بضيق : « اسكتي ، الغائب لا يفوّلون[2] عليه ! » . وساد صمت بلغ فيه

---

(١) المشلح : قاطع الطريق .

(٢) التفويل : التشاؤم عند العامة ، بعكس معناها اللغوي .

التوتر أقصاه .خيل الي ، انني اسمع وقع خطى ، فانصت ّ بمجامع حواسي .وضعت اذني على ضلفة النافذة ، فأثارت حركتي الانتباه ، لكن وقع الخطى كان وهماً ، فأمسكت شفاهنا عن الكلام ، ورحلت عيوننا على دروب الجبال ، تتقفى الأثر ، وتتصور الأب الحبيب ، في الوديان تارة ، وفي المرتفعات اخرى ، يتخبط بين الشوك والحجارة ومن حوله الظلام وعواء الذئاب ، حاملاً طبقه وسيبته وسلته وحيداً ، تعباً ، مغبراً وخائفاً مثلنا .

اقترحت والدتي أن نصلي . معنى هذا انها يئست من عودته الليلة . كنا نعرف مراسيم هذه الصلاة على اسم الغائب ، ونقبل عليها باندفاع . وفي صف واحد وقفت مع شقيقاتي أمام ايقونة العذراء ، وامنا وراءنا ، وتلونا « ابانا الذي في السموات » أولاً ، وتلت امي وشقيقتي الكبيرة « أومن باله واحد » بقدر ما تحفظانها ، وسكتنا نحن ، ثم رددنا مع الأم الادعيات : «يارب احفظ والدنا وارجعه سالماً .. يارب احفظه من كل مكروه ، وابعد عنه الشر ، واحمه من أولاد الحرام ، ومن كل ما يطير أو يزحف أو يؤذي الناس .. يارب يسّر له حتى يبيع حمله .. » .وكانت الأم ، لسبب لانعرفه ،تقترح ترديد دعاءها ، ثلاث مرات فنفعل . وعند فروغنا مسحت على رأسي ، وتناولت صورة العذراء وأدنتها من شفتي ، فقبلتها من كل روحي ،فيا هي تقول : « ياسيدتي العذراء لاتكشفي رأسي أنا الأمة الفقيرة ، ولا تجعلي هذا الصغير يعيش يتيماً ، واحفظينا تحت جناحيك ، وتشفعي لنا عند ابنك الحبيب ، آمين » .وأدارت الايقونات على شقيقاتي ، ثم لثمتها واعادتها الى مكانها ، وركعت امامها ففعلنا مثلها ، ونهضت فنزعت غطاءها عن رأسها ايذاناً بانتهاء الصلاة ، حيث لايبقى سوى النوم .

لكنها أعلنت انها ستحمّص لنا شيئاً من الحمص الذي تحتفظ به في علبة على رف المطبخ . وقد بعث اعلانها النشاط فينا ، فخرجت مع شقيقتي واحضرت بعض الحطب ، وأشعلت النار وهي توصينا ألا ننام .. ولأن الحمص كان قاسياً ، من النوع العجوز ، فقد سكبت عليه ، بعد تحميصه ، قليلاً من الماء في الصاج ، وغطته لكي يتخمر ، ووزعته علينا ملء حفنتها ، محتفظة بقسم منه للغد ، ولكي لانستهلك الغاز ، مدت الفرش على الارض ، واقترحت أن نجلس فيها ونأكل الحمص بدون ضوء ، وهكذا مدت يدها الى الفانوس فأدنته ونفخت عليه فانطفأ ، وتمتمت دعاء المناسبة : « الضوء انطفأ والعدو اختفى » ، ولم نعد نسمع في الظلمة الا قرقضة الحمص تحت الاضراس .. وبعد ذلك تمددنا كلٌ في موضعه ، واقرب ما يكون الى الام ، وتمنـــا ونحن على رجاء : ان تقع المعجزة ونسمع خطى الوالد أو سعلته قبل أن يدركنا النعاس .

هذه الليلة ، وقبل أن أغفو ، قررت أن أعمل شيئاً لأجل الأم والعائلة ، وفكرت أن أعمل أجيراً في أي مكان . كنت صغيراً ، نحيلا أصفر الوجنتين . ومع انني أكلت مما سرقه رفقتي أولاد الحي ، إلا انني لم اسرق ابداً . لقدأوصتني امي ألا أفعل ، وقالت ان العذراء تعاقبني إن فعلت ، وربما كنت لا أملك الجرأة على فعل كهذا ، غير ان اصدقائي الصغار ، الفقراء والمتشردين ، القذرين والملوثين بوحل حينا واتربتـــه ، كانوا يسرقون بعض الأشياء من الميناء والمستودعات ، ويبيعونها ويشترون بها الطعام والحلوى والسكاكر ، ويقدمون لي منها فأقبلها حين اكون جائعاً . كنا ، جميعاً ، حفاة في الصيف ، بنصف نعل في الشتاء ، وكان اصدقائي منهم يحموننى ، ويدفعون عني الأذى وعدوان الآخرين ، وقد ارتضوا ، ولا أدري لماذا ، النظر إلي كولد متفوق بينهم ، ولعل ذلك يعود

الى نجاحي في المدرسة ، ومساعدتي إياهم في الدراسة ، وكوني وحيداً وطيباً معهم.

كنت محبوباً من الأخوين فلفاط . كانا شقيين ، سارقين ، قويين وجريئين في المعارك بين أولاد الأحياء ، وكان أصغرهما في صفي ، ذكياً ، وكريماً ، يعمل الآن جزاراً في بيروت . وهو الذي قاد خلال ذلك الصيف ، الأولاد الى العمل على شاطىء البحر . أعلن فجأة أنه لا يريد أن يسرق بل أن يعمل . وقال انه اتفق مع رئيس عمال في أحد المستودعات على تشغيل من يريد منا ، وزعم ان الشغل بسيط أشبه باللعب ! فعلى شواطىء بحر اسكندرون ، المرفأ الرئيسي لسورية آنذاك ، مستودعات حبوب كثيرة وكبيرة ، ولأن البحر بدون ميناء ، والبواخر تقف بعيداً ، فقد وجدت ، ولا أحد يدري من أوجدها ، جسور خشبية (صقالات) ممتدة في البحر ، ترتبط بالمستودعات بخطوط حديدية ، وعلى هذه الخطوط عربات حديدية صغيرة مسطحة ، توضع عليها أكياس الحبوب والبضائع ، ودورنا أن ندفع هذه العربات بأحمالها من المستودعات الى الصقالات وبالعكس .

كان العمال هم الذين يضطلعون بهذه المهمة ، وها هو رجل يقبل بتشغيل الأحداث مكانهم . وذهب الصغار للعمل ، وبعد ساعات هاجمهم بعض الرجال وضربوهم ، فهربوا وتفرقوا ، وعندئذ تجلت موهبة الشقاوة والعناد لدى صديقي ، وصارت مفخرة حينا وسبباً لزعامته . فقد اقنعنا بعض الأحداث بحاجرة العربات وعرقلة سيرها . والحصى كثيرة على الشاطىء ، وهكذا انفتحت معركة قادها بجدارة وشهادة دم على صدر أحدهما من جرح في الرأس . وقد حسم رئيس العمال الموقف بتصدية الرجال الذين ضربوا عماله الصغار . نشب صراع رهيب ، فوق الرمال المحرقة ، سقط إثرها رجل ، فحمله « البازرلي » - وهذا اسم رئيس العمال - على كتفه

الى المستودع والقاه مثل كيس من العدس في الزاوية ،وبعدنقاش تعهد بتشغيلهم في مستودعاته فقبلوا ، وسمحوا للأحداث بالشغل .

هذه القصص كان يرويها لي الذين يعملون ، فاقترحت ان أذهب معهم ، وقبلوا على شرط أن توافق والدتي ، وهذه عارضت ، خوفاً على صحتي العليلة ، فخابت رغبتي ، وبقيت عاطلاً ، متحسراً ، مستوحشاً حتى عودتهم في المساء ، حين يلتئم الشمل ويقصون علي ما جرى لهم في نهارهم

افقت باكراً .. ومنذ فتحت عيني بحثت عن الوالد فاكتشفت أنه لم يعد تلك الليلة . دخلت المطبخ ، وافرغت في جيبي بعض الحمص ، وقلت لوالدتي أنا ذاهب لأعمل ، ور كضت هارباً كي لا أسمع توسلاتها ولا أرى دموعها .. ادر كت الصديقين في البيت ، فأنبأتهما بعزمي . قلت لهما ان والدي لم يعد ، وليس عندنا طعام ، ورجوتهما أن يساعداني .. فقال أصغرهما ، بنفس اريحيته وقدرته على الحسم : « امض معنا ولا تخف ، لن أدعك تتعب ، ضع يدك فقط على حديد العربة ولا تدفع .. سأكون معك » . وبخلافه كان أخوه الأكبر يشك بقبولي في العمل ، بسبب صغري وهزالي ، فتعهد الآخر بالسعي لدى « اليازرلي » أو بارغامه على قبولي . كان يثق بنفسه ثقة مطلقة ، وأغلب الظن أنه ازداد ثقة بعد المحاجرة ، ويعتبرني من « جماعته » ، التي جعل من نفسه رئيساً لها ومسؤولاً عنها . وربما ، في مجال الرياسة ، يريد أن يكون نداً لليازرلي ، حتى ولو فتح معركة محاجرة جديدة .

بلغنا المستودعات مع طلوع الشمس . العمل ، آنذاك ، كان يبدأ مع طلوع الشمس وينتهي بغروبها . كنت خائفاً من الرفض ، وفي سري ، طوال

الطريق ، ابتهلت الى العذراء . وكلما اقتربنا من المستودعات ازداد ارتباكي وتوجسي ، فلما رأيت « البازرلي » دقّ قلبي ، وعمق شحوبي .

استقبلنا هذا بدفعة من الشتائم على الحساب . تهدد الذين لايعملون أكثر بالطرد ، والمشاغبين بالالقاء في البحر ، ورد على عامل تدخل في الحديث « انت يا ابن الجرو ، ابلع لسانك وإلا قطعته .. لا أحد يتدخل ! » . سكت الجميع .. وصاح هو : « هيّا الى العمل .. ماذا تنتظرون؟ » . فانصرف كل أربعة أولاد الى عربة ، والرجال سحبوا الشراشير[1] واتجهوا الى اكداس الأكياس الخيشية المرتفعة حتى السقف .

كان المستودع ، ويسمونه العنبر ، واسعاً جداً . له باب حديدي سميك ينزاح ، حين يفتح أو يغلق ، على شريط حديدي في الأرض . وكانت أعماق العنبر ذات خلوات ومنعطفات ، وفي جدرانه الخلفية ، العرضانية نوافذ حديدها ثخين صدىء ، عشعش عليها العنكبوت ، وعلقت بنسيجه كل أنواع الهـوام والغبار والقش ، فانسدت أو كادت ، فهي لا تفتح ولا تغلق ، ولعلها كذلك منذ انشئت ، والنور يرشح منها شحيحاً ، والشمس لا تدخل إلى قليلاً ، والمغاور الكهفية للعنبر تبدو معتمة ، لأن أكداس الاكياس قد سدت أغلب النوافذ ، ومن الأرض والجدران تفوح رائحة عفونة ملحية خانقة ، ونتن جرذان ميتة ، وشيء كالصنان ، في الزوايا . و « البازرلي » ، حاكم هـذه المملكة المغارية والمسيطر على كل العاملين فيها ، يقف مباعداً ما بين رجليه ، وإلية شرواله الأسود المغبر ، مكورة بين ساقيه الى وراء ، وفي خاصرته « شرشور » رغم أنه لا يحمل الاكياس كباقي الرجال .

---

(١) الشرشور حديدة معقوفة ذات مقبض خشبي يغرزها الحمالون في الاكياس لرفعها .

فرغ من اصدار الأوامر والتفت الى صديقي والي . وجهه النحاسي ، الغامق السمرة وطربوشه الخمري ، على وجهه العريض الجبهة ، وعيناه الأقرب الى الجحوظ ، وشفتاه السميكتان، بلون العنب الخلاسي ، وقامته الطويلة العريضة، اخافتني للوهلة الأولى . اطرقت أمامه انتظر الحكم . وتكلم صديقي قائلاً : « جاء ليشتغل معنا ! » . وللفور سمعت صوته الأجش المتهكم : «لم يبق إلا هذا الدوري !». وفي اللحظة التالية ، كانت يده تمسك بثيابي من عند النقرة ، وترفعني في الفضاء . لم أصرخ لأن الرعب عقد لساني . توقعت أن يضرب بي الأرض ، لكنه تركني معلقاً في يده ، وسار باتجاه الباب فألقاني ، كقط ميت ، خارجاً على الرمل . ومن مكانه ، صاح بصديقي : «اركض انت الى الشغل ! »

انتهى ، بالنسبة الي ، كل شيء . سمعت والدتي ، ذات مساء ، تصلي وتعاتب يسوعها : « لماذا اذن ، يا سيدي ، تعاقبنا نحن الخطاة ؟ لماذا تخليت عنـــا ؟ » . وها هو يتخلى عني ، برغم كل تضرعاتي . وتحت وطأة الألم والقهر والانسحاق ، عاتبه احاسيسي الطفولية بكلمات أقسى . وثارت أحقادي ، دفعة واحدة ، على السماء والكون وجسمي الناحل وضعفي ودموع أمي وصلواتها . تولد في ذاتي دبيب غضب جامح على الدنيا ، وبرزت في خيالي ، كبقعة الزيت السريعة الانتشار ، أكوام الحصى ، وتمثلت لي فعلة صديقي التي سمعت بها كأحسن الأفعال واكثرها نفعاً . وشددت قبضتي على وهم حصاة كبيرة اقذف بها وجه البازرلي قادمية .

جاءني صوت صديقي جريئاً أكثر مما توقعت : « لن أشتغل إذا لم يشتغل هو أيضاً » فصاح به مزمجراً : « الى جهنم يا ابن ... ! » ، وهجم عليه ، لكن صديقي هرب ، على الرمال ، واستدار اليه وشتمه بنفس طريقته . تصورت انه

سيلحق به الى آخر الدنيا ، ويدوسه برجليه أو يمزقه بأسنانه . وبدون وعي ، وجدت نفسي أولي هـارباً ، واقف وراءه على مبعدة كافية . وعلى باب العنبر كان « اليازرلي » يقف ويداه في خصريه : « اذا طالتك يدي ، أو دست هذه المنطقة ، فستحاسب يا ابن ... » فصاح صديقي ، بلا مبالاة : « واذا أبقيت من يشتغل عندك من الأولاد أكون ابن ... يا... ! » .

أنا لا اذكر كل الشتائم التي تبادلاها بعد ذلك ، كنت ، من هذه الجهة ، واثقاً من تفوق صديقي ، فقد حدثني انه تمرن عليها يوماً كاملاً . أجلس أخاه في « فاكون » معطل في محطة القطار ، وجلس في اخرى ، وشرعا في مباراة سباب داعر حتى المساء . وفيما بعد ، حين كنا نمر بامرأتين تترادحان ، او عراك بين اشخاص ، كان يتوقف ويصغي باهتمام ، فاذا مضينا قال لي : « سباب لايستحق الذكر ، من العيار الخفيف . ! » . او سار دون توقف ، مشمئزاً ، لانها « خناقة اوادم » او « الفحش قليل ، كأن المتعاركات من بنات الراهبات ! » . وأشهد انه ، هو ، لم يكن يقذع في كلامه . كان يستعمل يده لا لسانه ، انما له هواية في حضور خناقات النساء ، فاذا اقذعت احداهن ، وجاءت بجديد او طريف ، ناصرها فوراً ، فسألته عن السبب ، وادهشني جوابه : « من يشتم يكن ضعيفاً ! » قلت : « وهذه الشتائم التي تجمعها ؟ » فقال : « انا من الهواة وقد تفيدني يوماً ! » .

وهاهو اليوم الذي تفيد فيه الشتائم ! ولقد حسدته ، واطلقت بدوري بعض الشتائم الصغيرة في سري ، غير ان « اليازرلي » غير موقفه فجأة ، اذ رأى الأولاد قد اوقفوا العربات وتجمهروا حولنا ، وترك العمال الشغل وتحلقوا حوله. ربما ادرك ان المعركة خاسرة ، او استشعر حطاً لهيبته في عراكه مع هذا الصبي ،

وقد يكون صديقي اعجبه ، بكل بساطة ، فعفا عنه ، كما عفا صديقي عن ولد شتمه شتيمة لم يسبقه اليها أحد ، والمهم أن الرجل صاح به : « تعال الى العنبر وستنقاهم ». فاشترط عليه : «امسك شواربك فآتي » . وضحك العمال وصفقوا ، فانتهرهم وهو يرتجف ، لكنه أمسك طرف شاربه وقال : « ياابن الكلب ... تعال قبل ان يفور غضبي من جديد » . وذهب صديقي اليه، فأمسكه من أذنيه ، وهتف احد العمال : «تذكر انك وضعت يدك على شاربك ! » وقال البازرلي : « اعفو عنه اذا قبّل يدي » ثم تساءل : « واذا سحب شتائمه ! » . وسحب الصديق شتائمه ، وتمت المصالحة أخيراً بفتوى عامل مسن : « فاجرة الخصام ليست فاجرة ! » . ومضى صديقي الى العربة وانا وراءه .. وبوضع يدي على الحديد دخلت دنيا العمل وودعت الدراسة .. كان ذلك آخر العهد بالمدرسة ، وانا في الثانية عشرة من العمر .

خالطني مس من الفرح . كبر صديقي في عيني ، وبدون اقتراح او طلب ، رفعه الأولاد الى مرتبة الزعامة ، ولكي اكون موضع ثقته ، واظهر عرفاني بجميله ، شرعت بدفع العربة بقوة . كان البحر الأزرق الجميل ، سهلاً سماوياً لاحد له امامنا ، وعلى الرمال السميدية التي تغرق اقدامنا الصغيرة فيها ، يمتد الخط الحديدي ، مستقيماً من العنبر الى الصقالة ، والموج ، رغاءابيض حيي ، يتداح على العجينة الرملية للساحل الجوني ، والشمس تتوهج في سماء كرستالية اللمعان ، وتجفف ، بسرعة ، نداوة الاشياء .

وعلى مدرج الصقالة ، في خط صاعد قليلا عن مستوى الرمل ، كان دفع العربة المحملة يتطلب ضغطاً أقوى . وقال صديقي : « انتبه ، هذا يسبب الفتاق » . اما في طريق العودة الى العنبر ، والعربة فارغة ، فكان الأولاد

يدفعون بقوة ، ويقفزون الى العربة التي تجتاز قسماً من الرمال بفعل الاندفاع عن المنحدر . وقد راقت لي هذه اللعبة جداً ، فمنعني من الاسترسال فيها ، لأن العربة تخرج عن الخط بفعل تخلخله على الرمال ، وتنقلب على من فيها ، فتسبب لهم الرضوض والكسور ، سألته : « ولماذا يركبونها اذن ؟ » قال : « ستعلم بعد قليل ! » . كان اكبر مني بسنتين ، وهاهو ، دفعة ، اكبر مني ، باعوام . هنا ليست المدرسة ، هناك كنت انا عريف الصف ، والتلاميذ الكبار يتوددون الي ، وعلي ، الآن ، ان ادفع من نفس العملة ، ان اتعلم ، واضع في حسابي ان قوة الجسد ، لاقوة الذاكرة ، هي المطلوبة .. ولشد مانقمت على ضعف بنيتي ، وحينما صرعني صبي اصغر مني ، في نزال فرض علي ، انطويت على حسرة عميقة ، لاستنتاجي انه تغلب بسبب تغذيته الجيدة ، وتعزيت بذلك وأسفت .. ولم اقل لأحد . كنت أحسب ، في ذلك الوقت ، الفقر عيباً ، ولكم جهدت عبثاً لاخفاء هذا الفقر .

هذا الشعور ، بالضعف الناتج عن سوء التغذية ، والنقمة عليه ، عاودني بعد ساعات من بدء العمل . لم آخذ بنصيحة صديقي . أنفت من الغش ،ودفعت بكل طاقتي ، وكانت ضئيلة ، غير متمرسة ، فراحت تتضاءل مع كل نقلة . شرعت ألهث ، وكتمت لهاثي ما استطعت ، وتجنبت عين « اليازرلي » كيلا افضح نفسي واخزي صديقي . وفي الدقائق القليلة ، بين تحميل العربة الحديدية او افراغها ، مضغت حبات من الحمص ، وهي زادي الوحيد ، في محاولة لاستعادة قواي ، ومع ذلك بؤت بفشل فاضح .

هل لاحظ صديقي ذلك ؟ هل اكتشف عذابي ورأى نظرة الخوف من فضيحة ضعفي امام اليازرلي والصبية وامامه هو نفسه ؟ جائز .. ولكي يخفف

عني ، اقترح ان اركب العربة وهي تعود الى العنبر فارغة . رفضت ، بل اصررت على الرفض مدفوعاً بالخجل الذي اعتراني . اقترح ان نركب معاً ، وندفع بالعربة على المنحدر كما يفعل الآخرون ، وفعلنا ، لكن العربة كانت تقطع ربع المسافة على هذه الحال ، ثم تقف ، فننزل منها وندفعها ، وتغوص اقدامنا بالرمال التي غدت حارة اكثر فاكثر مع تقدم النهار التموزي ، ثم استحالت الى رماد حارق قرب الظهر .

من عاش في فرن المحنة قادر على فهم المعاناة . على جمر الرمال ، وتحت لهب الشمس ، وامامنا عربة تحمل طناً او اكثر ، وحديدها حارق ، والجو محتبس ، لزج ، والحلق جاف كنا نسير وندفع العربة . واذ تخور قواي ، حتى درجة السقوط ، يشرع دماغي ، باصدار نداءات التوسل : « خطوة اخرى .. اخرى ايضاً .. اقتلع القدم اليمنى من الرمل .. اقتلع اليسرى .. مرة ثانية اليمنى .. ومرة ثالثة اليسرى » .

حسناً ! جرجرت قدمي ، متشبثاً بكل ارادة الصمود ، ومتعللاً بأمل الراحة في الظهر . اغمضت عيني حتى اوقف الدوار ، وسمحت لنفسي بالغش قليلاً . خففت دفعي ، صرت لا ادفع الا مع صعود العربة مرتقى الصقالة ، وحاولت الا اطأ الرمال ، فوجدت العوارض الحديدية اشد حرارة . خطر لي ان أتوقف في منتصف الطريق . كان رأسي يطن ، ومعدتي تفور بالغثيان الذي يسبق القيء ، ونظراتي كليلة ، غائمة ، والرمال تتماوج ، بهيئة سرابية . شعرت بالاختناق ، كالواقف على رأس جبل هواؤه خال من الاوكسجين ، وتراءت لي الجلسة عند قدم جدار ظليل ، أمنية فوق الامنيات .. وبابيتنا المترب ، والعتبة المدحولة ، المرشوشة بالماء في القيظ ، لو اعود إليكما ، واتمدد مستنشقاً رائحة

الارض والرطوبة ! ياامي الطيبة ، لو كنت قربك ، والرأس على الصدر ، اذن لبكيت حتى ملأت خابية المؤونة الفارغة ، فأنت ، ياام ، تفهمين بكائي ، ولا اخجل به امامك . وانت ياسماء ! آه ما ابعد السماء ! ويسوع هناك ، والعذراء ، واختي الصغيرة ، وانا ، محمولاً على السحب ، اذهب إليها .. الآن ارغب في الذهاب اليها ، أحببت في الذهاب هي ، وربما تحت شجرة تلعب ، ولو رأتني مقبلاً ، ولو رأيتها جالسة ، على كرسي صغير ، ولعبتها الصغيرة في حضنها ، كعهدي بها بيتنا !

وقطعنا المسافة الى البحر ، وعدنا الى العنبر ، فامتلأت العربة وبدأ الدفع .. انا لا ادفع ، منذ بعض الوقت لا ادفع .. اضع يدي على الاكياس واتجرجر .. واعض على شفتي وانا اتجرجر ، واقبض ، خلسة ، على طرف الكيس ، واتعلق به .. لم يعد البحر ، ولا البيت ، ولا وجه الأم ، ولاالسماء ، ولا اختي الصغيرة في السماء ، موضع اهتمام او رغبة . لم يعد الوالد ، ولاالاخوات في وعاء ذكرياتي . انقطع كل شيء . انفصلت عن الوجود والزمن . تعطل معمل التصور والاحساس بما هو خارج الذات . أنا والرمال ، ولا شيء آخر . تتراخى يدي الممسكة بالكيس فاتهاوى على الرمال ، واظل راقداً عليها .

قمت بخطوة ، خطوة أخرى ، ثالثة .. وغام الوجود .. بدت السماء تدور بسرعة مرعبة . خيل إلي انها قبة زرقاء تدور على محور غير منظور ، واشتد دورانها فتصاغرت ، انتهت الى ما يشبه الصحن ، ثم فوهة الطاسة ، ثم الزر ، وغدت ، أخيراً ، نقطة ضوء ، وانطفأت .. وساد ظلام كامل .

* * *

حين فتحت عيني ، كان صديقي امامي ، ووراءه اليازرلي . لم اكترث لوجود هذا الأخير . سيان عندي . ليتركني فقط حيث أنا .. وقرفص صديقي وربت على خدي . ناداني باسمي فلم اجب ، وبعودتي الى الوعي كانت بصلة مفقوشة على انفي ، وكف اليازرلي تسند رأسي والماء يبلل ثيابي . احسست بالراحة رغم الاعياء . ففي الظل اجلس ، داخل العنبر اتنفس ، ورغبة في النوم تداعب اجفاني . ورفعني « اليازرلي » من تحت ابطي ، واجلسني على كيس فارغ وجاء « بكازوزة » ، وادناها من فمي ، ولما تلاقت عيوننا لم اصدق انه هو .. كان انساناً آخر ، لايقتل الاطفال كما تصورته ، والكف التي رفعتني ، في البدء لتلقيني خارجاً ، تسند رأسي ، وفي العينين الجاحظتين ، الصفراوين ، قليلاً ، عند المحجرين ، إشفاق ومودة ، ولونه الحلامي ، لم يعد غريباً ، ولا مخيفاً .

وغادرني صديقي عائداً الى العمل . كان ، فيما ظهر ، على وفاق مع اليازرلي . وعلمت ، في القيلولة ، ان هذا لم يشمت بي ولا به . لم يقل كلمة حول معركة الصباح ، وحين سقطت ، على الرمال المحرقة ، ورعف الدم من انفي ، تراكض الاولاد وصاحوا : مات ! فهرع من في العنبر ، يتقدمهم اليازرلي ، ولمني عن الرمل ، واحتضنني بين ذراعيه القويتين ، وجاء الى العنبر والاولاد والرجال وراءه . توقف العمل وهو في عزه ، وفي حالات كهذه ، ولأي سبب ، كان اليازرلي يخور كثور ، يسحب شرشوره وينجرد وفي وجهه الشرر ، فاذا عف عن الضرب ، فش خلقه في الأرض ، انهال عليها بشرشوره حتى يفتح فيها حفرة ، واذ ذاك يسود الصمت ، وتعود حركة العمل الى سابق عهدها .

وضعني اليازرلي في العنبر ، ودلق علي جرة ماء كاملة . فرك شريان

اليدين ، بين السبابة والابهام ، وقرب من انفي بصـلة فقشها بكفه الغليظة ، وبمنديله مسح الدم ، فاعادني ، بإسعافاته ، الى الوعي . تم كل ذلك بسرعة ، وبمثلها صاح بالمتحلقين : كل واحد الى شغله ! فتفرقوا ، وبقي صديقي بعدهم قليلاً صامتاً وربما خجلاً متوقعاً في كل لحظـة ان يعنفه ، ان يسخر منه ومن « الدوري » الذي أصر على تشغيله ، بيد انه لم يفعـل ، وفي النهاية أمر صديقي بالعودة الى عمله فأطاع ، وبقيت حيث وضعني على الكيس الفـارغ ، منسحقاً من التعب والخجل تحت رحمة انظار الصبية والعمال .

لا أدري كم بقيت ثمة . استعدت كامل وعيي تدريجياً ، انما لم استعد ارادتي فيما يجب ان اعمل . وددت لو تركت على ما أنا عليه . بل لم افكر فيما انا عليه ، ولا بشيء . كتلة لحمية صغيرة مهملة يتردد فيها نفس ، وعينان سوداوان تحت شعر خرنوبي طويل ، وعنق ناحل فوقه رأسه مكور ، مدبب عند القذال ، يلتوي على الكتف ، في جلسة استرخاء ولا مبالاة ولا قدرة على الحركة . وعبر باب العنبر كانت نظراتي تطوف في الابعاد متنقلة بوني الناقه من مرض ، فيها شرود ، وتحسس مفرط ، حزين ، لكل ماتقع عليه ، تساقطت على الرمل ، انغمست في البحر ، رحلت الى الحـارة ، تابعت الام والاخوات في البيت ، والوالد الغائب في طوافه المعذب في القرى ، حاملاً حاواه التي جففتها الشمس وملأها الغبار وحط عليها الذباب ، ثم ارتدت النظرات من رحلتها على انكسار : ضاعت آمال العمل . وصارت العودة الآن ، الى البيت ، مخزية ، باعثة على المزيد من الخيبة واليأس في نفوس من فيه .

العجيب انـني لم افكر بقتل نفسي ، ولا بالموت الذي يذهب بي الى جوار اختي الصغيرة في السماء ، ولا بالعودة الى الحارة والبكاء على صدر الأم .

لقد بلوت أحاسيس الأسى الرقيق ، كغيوم الخريف ، التي كثيراً ما انتابتنا عند عودة الوالد من تطوافه خائباً . كان هو نفسه يعود حزينـــاً ، منكسراً كمن ارتكب ذنباً . وفي هذه الحالات كان الصمت يخيم ، ويحترم كل منا شجون الآخر ، وكنت اهرب ، ان كان الوقت مساء ، وامشي وحيداً ، متجنباً اللدات ولعبهم ، مفكراً ، على نحو موجع ، في الوضع الذي تركت عليه اهلي في البيت ، وأنام دون ان اسأل عن شيء .

وهذا الصباح ، تحديت طبيعة الأشياء الكئيبة والمألوفـة في اسرتنا الصابرة ، وخرجت لأعمل . احييت ، ربما ، أملا ... بعثت ، في اخواني المنتظرات ، شعوراً بحلول ذلك اليوم الذي اعمل فيه واساعد الوالد واضعاً الحصاة في خابية الماء كما في حكايات الوالدة . وها انا ، في معاناة مذلة ، اضيف ، بجزيئي ، خيطاً جديداً الى « الحبل » الذي فتله لنا الدهر كما يقول والدي .

قررت الا اعود الى البيت . وحتى لو عدت الى الحارة فسأنتظر الظلام ، وانسل الى المنشية وانام عند جذع شجرة . الافضل أن أرحل ، باحثاً عن عمل ولقمة ، وحين احصل عليها ، ويمتلىء جيبي بالنقود ، ارجع ، مدفوعاً بلهفة شوق لا تحد ، الى امي ، وافرغ ما معي ، حتى آخر جزء ، في حضنهـــا ، واقدم لشقيقاتي الكعك والخبيزة (١) . لانهض ، اذن ، وأمشي . أتسرق ، دون أن يدري أحد ، وابتعد عن هذا المكان . لا يهم الى أين ، ولا الى متى .. ربما الى هناك ، حيث تتصل السماء بالأرض ، ترى ما بعد ذلك الاتصال ؟ تنتهي الدنيا ؟ المعلمة ، في المدرسة ، قالت : لا ، الارض كروية ، والى النقطة التي ننطلق منها نعود . اغتممت . خيل الي ان بوسعي ان أقطع المسافة في يوم ، وافرغ من

---

(١) سكاكر هشة رخيصة للقرويين .

الدنيا ، وانا ارغب في رحيل بعيد ، لا اعود فيه الى نقطة الانطلاق ... ان أمشي، أمشي، واخترق حاجب الاتصال، عند الافق البعيد، وارى ما وراءه، ذلك هو المبتغى . وربما ، كما في الحكايات ، اخذتني جنية ، وجعلتني ابنها ، وفتحت لي الكنوز ، وربما وصلت بلدة واهلها ينتظرون، ليصنعوا من القادم الغريب أميراً .. وقد اصادف تلك السيدة التي كانت في العربة ونزلت فقبلتني واعطتني نقوداً .. وحتى لو لم اصادفها ، ولم اجد طعاماً ، ولا بيتاً ، فالسير ، هكذا ، الى حيث لا اعلم ، كان عزائي ومخرجي من الورطة .

تزحزحت عن الكيس باتجاه الباب . لا احد ينظر الي ولا من يهتم بامري .. انتظرت حتى ابتعد اليازرلي الى اعماق العنبر ، وتحركت للخروج ، واذ ذاك وقع حادث عطل مشروعي في القيام برحلتي الخيالية حول الارض .

الاكياس الخيشية التي تنقل من العنبر الى البحر تدمغ بماركات من الاحرف اللاتينية الكبيرة . وهذه الاحرف مكتوبة ومفرغة على صفائح من تنك ، ويبقى أن يضع العامل صفيحة منها ، يختارها اليازرلي ، وفق ورقة رسمت عليها الماركات في المكتب ، ثم يرغها بالحبر فيرتسم الحرف او الحروف على الكيس . ولحسن حظي ، ولسوء حظ العامل ايضاً ، فقدت احدى الصفائح وتوقف الشغل . فتش اليازرلي كل الصفائح ، كل الزوايا ، ولم يجدها . اهتاج ، شتم ، اوقف التحميل ، والصفيحة المطلوبة ضائعة . كان يمسك بالورقة ويضرب عليها : «هذه هي الماركة ... الباخرة لا تقبل البضاعة بدونها »! واقتربت منه ، محاذراً ، ونظرت ، فاذا الاحرف واضحة ، وبينها حرف H ، فقلت وصوتي لا يكاد يسمع : « انا اكتبها ! » .

التفت الي برأسه فقط . ومن جديد رأيت في عينيه الشراسة والازدراء ،

لكنه سرعان ما استدار وسألني: «تكتب وتقرأ ؟» قلت خائفاً: « نعم !» فصاح بحكم العادة: « اسألك تكتب وتقرأ بالفرنجي ، لا بالعربي ؟ » قلت: « بالفرنجي ايضاً ! » ولكي اثبت ذلك ، اخذت الفرشاة ورسمت على الارض الاحرف المطلوبة. وعندما رفعت رأسي ، تلقيت اول رد اعتبار في دهشة الاعين من حولي وللحال سرى نسغ الحياة في دمي ، وحملت سطل الحبر والفرشاة بوعدة امتزج فيها الارتباك بالفرح بالقوة ، بكل المشاعر المتباينة امام تحول عنيف ومفاجىء .

كان علي ان اعمل بسرعة ، لتسيير العربة الواقفة بحملها ، وكان اليازرلي يراقبني حتى لا اخطىء وهو يقارن بين الاحرف في الورقة والاحرف على الاكياس. وقد اجتزت ، هذه المرة ، اول امتحان عملي في حياتي بنجاح . وبين ملاحظات العمال ، وتعليقات الاولاد ، وكلها لصالحي ، كان « الدوري » يرقى اكداس الاكياس بخفة السنجاب ، تاركاً وراءه الاحرف الاولى على غير دفاتر المدرسة.. كان يكتب ، الآن ، بالحبر ، وعلى الاكياس ، وامام رجال لم يعرفوا طريق المدرسة ، ولا امسكوا قلماً الا البري ، وعلى مرأى من صبية ، نشأوا في الازقة وفغروا افواههم وهم يتابعون يدي تنقش الحروف بالحبر الاسود اللماع .

واقبلت عربة صديقي أخيراً . كنت قد صرت على رأس الكدس ، قرب السقف ، ومن موضعه ، على الارض ، هتف بي : « أنت ! وماذا تصنع هناك ؟ » قلت بزهو : « اكتب ، كما ترى ! » وقال اليازرلي : « دوريك ، ابن مدرسة اذن ! ؟ .. لماذا لم تخبرني من الصباح ! » . فابتسم صديقي وعاد يرنو الي. كان في صفي ، وقادراً ان يكتب مثلي ، ولو باتقان وخفة أقل ، غير انه رفض المباهاة ، ولم يشأ أن يقلل من أهمية ما اعمل . اعتبر ذلك نصراً له ، ربما ، وربما كان قلبه الطفلي لا يعرف الحسد ، وغادرني راضياً ، سعيداً ، دون ان يلاحظ

وا أسفاه ، انني كنت امارس شعوراً غامراً ، زائـــداً عن الحد ، بالتفوق على الاتراب ، وانني ، في هذا الزهو الخادع ، استعيد ثقتي بنفسي ، وانتقم من فشلي وضعتي حيال ما لحقني من عار .

ومن اعماق الميناء جاء صفير باخرة الشحن . الحمالون والبحارة يعرفون شارات الصفير ويترجمونها ، بل يعرفون الباخرة التي اطلقتها . وراح اليازرلي يستحثنا قائلاً : «الباخرة تطلب البضاعة» اوالقى ، بحركة حمال قديم ومعتد ستوته ، وتناول الشرشور وشكه في كيس رفعه على ظهره والقاه على العربة وانثنى على الذي يليه ، وهو يصرخ : «أين همتكم يا شباب ؟» . كان كيسه يأتي ، عرضانياً ، في موضعه من جسر العربة ، فلا يحتاج الى تسويته او همزه بالشرشور ، وهذه ، بعد القدرة على رفع الاكياس الكبيرة ، من زنة المئة كيلو فما فوق ، علامة المهارة . وقال حمال اشتهر برفع «البالات» من زنة المئتي كيلو والصعود بها على اللوح الخشبي :

– لا تتمرجل يا يازرلي .. نحن نعمل باكثر من طاقتنا . عندك رجال !

– الرجال في العنابر الاخرى .. انتم عجائز .. ولا اقول نساء !

– لو كنت ابن الوالد لأنصفت !

توقف اليازرلي وحدجه بنظرة ثم بصق

– صدقت .. انا ابن ... ، لاني اشغل معي ابن ... مثلك ؟

فتدخل حمال ، من الطرف الآخر :

– اذا كنا لا نعجبك اصرفنا .. ألف من يستجير .

– طبعاً .. لان الدنيا صيف .. وفي الشتاء تتغير اللهجة ، تقبلون النعل ..

– تقبيل النعل – قال حمال أعور – ليس من شيمنا .. انت تعرف رجالك لولاهم كنت شحاذاً ..

فصرخ به اليازرلي :

– اخرس والا فقأت عينك السليمة ، يا اعور الدجال ..

سحب الاعور شرشوره وانحدر عن الاكياس :

– اذا لم تكن امرأة تفعل ..

– وا كون امرأة ان لم افعل ..

ارتبكت ، لشدة اضطرابي ، فدلقت بعضاً من الحبر على الكيس . لم اصدق ان في الدنيا اناساً ، يتشاتمون ويتضاربون بمثل هذه السهولة ، ولغير ما سبب . كنت أجهل ما تنطوي عليه الكلمات من تعريض ، وما في الصدور من رغبة مجردة للعراك . وفي دهش ورعب تابعت حركة الشراشير التي اشرعت كالاسنة ، ولاحظت ان اليازرلي جحظت عيناه اكثر ، والاعور تزججت عينه السليمة فهي لا تطرف . ومن على الاكياس انحدر الرجال ، واحتضنوا المتخاصمين وأبعدوهما ، ورضي اليازرلي بالمداخلة فصرخ : كفى ! عودوا الى الشغل وفي المساء نتحاسب ..

وقفز الحمال ، رافع البالات ، وتربع على الارض ، صائحاً وهو يخبط بيادنه فتثير سحابة من غبار :

– اما انا فلن ارجع .. سأسكر هذه الليلة !

– انت حر – قال اليازرلي – بعد الشغل افعل ما تشاء ..

– ستعطيني اذن على الحساب ..

– فشرت ..

– تدينني حتى اقبض ..

– فشرت أيضاً ..

– وربك – أقسم – لن انهض حتى اعرف مصيري .. انا ضيفك هذه الليلة يا يازرلي .

– هذا حباً و كرامة .. تعال مساء الى الخمارة .. واشرب حتى تنطفىء.

– لا شغل لي في الخمارات ..

وتعالت اصوات :

– يريد « تعيينه [1] » ناشفاً ..

– نعم .. اريده ناشفاً ..

– هذا يتوقف على الشغل ..

– كلمة شرف يا يازرلي !

– هذه كلمة اليازرلي .. هيا .. عوضوني ما فات .. شيلوني .. [2] ألا تسمعون صفير البابور ؟

نهض الذي يتربع تاركاً لبـادته على الارض . زغرد ودار على نفسه كالبهلوان، وازاح اليازرلي من طريقه وباعد بين رجليه وتناول الكيس .. وعلى الفور علت القهقهات .. وفيما انا احمل واقيته لاعرف سبب الضحك ، فاذا هو يحر ككلب ينهش الاكياس ، فاذا بلغها رفع الكيس بين ذراعيه ، مسنداً جانبه الى صدره ، وسار به فالقاه في العربة . فصاح به اليازرلي مشجعاً :

– أحسنت ... آه يا حطاط للحاير عشاه [3] .

احتج احدهم :

– ونحن لا نقصر ! .

– وانتم لا تقصرون .. (اعترف لهم) .

---

(١) الحصة من المؤونة او الطعام .

(٢) شيلوني ، من شال ، اي ارتفع ، والمعنى ارفعوني في زحمة الشغل .

(٣) يقصد به الزير سالم ، الذي امسك الأسد وادخله الاسطبل وربطه موضع حماره الذي أكله .

– وانت تتشدد معنا عند الانصراف ..

– لانكم طاعون .. انظروا ..

التفت فرأيت حمالاً أشيب ، له صوت حاد وضحكة مثل قوقأة الدجاجة يعود من الخارج . لم افهم شيئاً . وعاد الحمالون الى الضحك ، وقال الاعور :

– قضاها ! .

– نعم .. قضيت حاجة .. مثل الناس .

فصرخ اليازرلي :

– شيبة ضالة .. اين خبأت الحنطة ؟

وحلف الاشيب ، فتركه اليازرلي ومضى الى الخارج ، وبعد لحظة عاد وبيده كوفية مزمومة على نصف تنكة من القمح ، ففكها وافرغ ما فيها على الكومة المتجمعة من الاكياس التي تتمزق عند تحميل العربات .

عند الظهر كنت قد تأصلت في « وظيفتي » . وبقيادة صديقي ذهبنا الى البحر وغطسنا . واطعمته بعضاً من الحمص فقبله . وكذلك اكلت من زوادته . وعدت مرحاً الى عملي . لقد احببت العنبر ورجاله وشتائمهم ومعاركهم والروائح النتنة . وفيما انا ارسم الحروف شرعت اتصور طريق العودة الى البيت ، والكلمات التي سأقصها على الوالدة والاخوات .. كدر واحد نغص فرحتي : ان ارجع فلا اجد الوالد في البيت .

في المساء ، بعد العمل ، أصر اليازرلي على تفتيش الرجال . كانوا قد القواستراتهم على اكتافهم استعداداً للخروج ، فقال اليازرلي :

– الشوب يحرق ذنب العصفور وانتم في الجاكيتات .. على « فرنكا »(١) ! اقتربوا مني .

---

(١) على فرنكا ، اي على الفرنجي ، والمقصود الزي الرسمي !

كانت السترات ذات جيوب كبيرة ، خامية ، تحت البطانات . وظهر كما حزر اليازرلي ، انها ملأى بالقمح والعدس وصنوف الحبوب. وكانت السراويل جيوبها أيضاً ، فامرهم :

- افرغوا مامعكم على الارض . .

فصاح الأشيب :

- شفت ؟ عدت الى التشدد . . ليس معي الاحفنة حنطة . . «سليقة»[1] الصغار ، من الكناسة[2] ! !

- الحفنة ، والحفنتان ، والثلاث ، أتركها . . اما الاكثر يعود . . اذا نقص الوزن انخرب بيتي ، افرغوا جيوبكم .

وطفقوا يقلبون جيوبهم . . ثم اقتربوا فتحراهم واحداً واحداً ، ولاحظت انه يتحرى بعضهم بصورة شكلية ، ويتسامح بالكميات الصغيرة ، ولما جاء دور الاشيب انفجر الضحك . كان يمشي كمن به فتاق . . ففي إلية سرواله رطل من القمح ، وما ان مد « اليازرلي » يده اليها حتى صاح الأشيب :

- آه يافتاقي ! قتلتني يابن الكلب !

وركض باتجاه الباب وخرج ، والحمالون وراءه ، وضحكت ، لاول مرة ، ضحكا من القلب في ذلك اليوم . حتى اذا هممت بالمسير ، استوقفني اليازرلي :

- لاتذهب أنت . . لي معك شغل انتظر قليلاً .

قالها وصرف الاولاد ، بمن فيهم صديقي ، وغاب هو في اعماق العنبر ، يتفقد الأبواب والبضائع ، وانا اعجب لسهره وامانته وقسوته وطيبته في آن .

---

(١) مايسلق من القمح في الاعياد ، ولتحويله الى برغل .

(٢) مايتناثر من حب على ارض العنبر، ويكنس !

فلما فرغ من ذلك ، اخذني الى مشارف النور ، عند حافة الباب ، واخرج دفتراً صغيراً من عبه وأمرني :

ـ اكتب ماأقول لك : نفدة لجواد بتاريخه .. وتحتها ٥ كيلو عدس . نفدة بتاريخه للاقرع .. وتحتها ١٠ كيلو حنطة .. نفدة . .

فلما كتبت له ماطلب ، اعاد الدفتر الى عبه واعطاني ثلاثة قروش مع هذه الملاحظة :

ـ هذا خارج الحساب .. لاتقل شيئاً لأحد .. فهمت ؟وعبس وصرفني.

كانت يداي ملطختين بالحبر ، وخشية الا يكون ظاهراً عليها ، لطختها اكثر قبل الانصراف ، ودخلت الحارة وانا مرسل الذراعين على الجانبين، مفتوح الراحتين ، ليراهما الناس . وفي البيت كانت البشرى : عاد الوالد ! وعانقتني الوالدة وبكت فرحاً ، وبعد ان قصصت عليها كل شيء، ماعدا حكاية النفدات، اعطيتها القروش الثلاثة ، فركعت امام ايقونة العذراء ، ونذرت لها نذراً ، وخرجت فطافت بيوت الجيران قائلة :

ـ سمعتم ؟ ابني توظف .. كاتب ، والعقبى لأولادكم .

* * *

جرى في نهاية الاسبوع الأول ، دفع الحساب للرجال والاولاد ، من قبل موظف ارسله التاجر صاحب العنبر ، واستمهلني اليازرلي، كعادته كل مساء. وامرني بعد ايضاح الاسعار لكل صنف :

ـ قرّش لي النفدات .. كل اسم على حدة !

فعلت ، فهز رأسه وشتم ، قال :

ـ جمعاً يكون !

جمعت له النفدات واثمانها . فعاد يهز رأسه ويشتم :

ـ كانوا يسرقونني ، اولاد الكلب ، انا الذي لااكتب ولااقرأ .. والآن بدأ الشغل المضبوط ، صار عندي كاتب والحمد لله ، تعال غداً الى المقهى سأكون بانتظارك .

ذهبت ، فنفحني بعض النقود مكافأة .. وفي الأيام التالية، سألني بعد تسجيل النفقات الجديدة :

ـ لماذا لاتلبس سترة مثل الآخرين ؟ البس سترة ، وقل لأمك ان تكبر جيوبها .. سيأتي ايام الشتاء ، وقليل من « السليقة » ضروري .

ولتهوين الأمر علي ، ودفعاً لسوء الظن به ، اشار الى كومة من القمح عند الزاوية :

ـ الذي يقطف العسل يلحس اصابعه .. نحن هنا لانلحس اصابعنا .. انا لااسمح بذلك .. اما هذه فكناسة .. لابد من تكنيس الارض .. من خيرها .. لا فضل لأحد .

لم آبه لكلامه . تارة يتمزق كيس ، وطوراً يزقونه عمداً . ونفقاته لااراها .. اسجلها ولااراها .. لكني اشك ان تكون من الكناسة .. الأرجح من « العسل » . ولم تخطر لي خطيئة لحس الاصابع التي تقطف العسل ، ولو خطرت وقلتها للآخرين لضحكوا علي ، وربما ضربوني ..

على اني عثرت ، وانا انقب في العنبر ، على صناديق فيها كراريس من طباعة محمد البابلي الحلبي واولاده في مصر ، او في حلب ، كان الاسم موجوداً عليها . وكان احدها بخلوع الغطاء ، فأخرجت كراساً عليه رسوم وقرأت أول قصة من « الف ليلة وليلة » ثم رحت ، كلما سنحت الفرصة ، احوم حول الصناديق « ألحس اصابعي » انا ايضاً .. ورآني البازرلي فاقبل نحوي وهو يبتسم :

ـ خذ منها ماتشاء .. هذه « الكناسة » للفيران .. لايهتم بها احد.

وتأكدت ، طوال عملي معه ، ان احداً لايهتم بهذه « الكناسة » سوى كاتب النقدات ، وجرذان العنبر .

بعد ذلك ، وبصورة مفاجأة دخل البازرلي السجن ، حزنت لأجله جداً ، وأسف الحمالون وتحدثوا عنه . كانوا ، حياله ، فريقين . ولم افهم ماوقع تماماً الا من صديقي :

ـ البازرلي هجم على جارته وهي عارية كما خلقها الله .

وطلباً للتفصيلات المثيرة سألته :

بدون اي قطعة ثياب !؟

ـ أقول لك عارية .. مثلما جاءت من بطن امها ..

ـ وكيف رآها عارية ؟

ـ كانت تتحمم[1] .. جالسة في « لقن[2] » كبير ، وصدرها، ونهداها، وظهرها الأبيض .. انت لم تر في عمرك امرأة عارية ؟ (وفرك كفيه) آه لو أرى امرأة عارية مثله !

ـ وماذا تفعل بها ، عيب !

ـ عيب (ودفعني في صدري بلطف) أنت صغير بعد.. اذهب واركع امام العذراء .

في تلك الليلة لم اركع امام العذراء . اردت أن أثبت انني كبير ، ونمت وأنا افكر بالمرأة العارية ، الجالسة في « اللقن » ، بيضاء البشرة ، مكشوفة الكتفين والصدر والظهر .. وقد عذرت البازرلي الذي رآها وحين .. لكنني

---

(١) تستحم

(٢) « اللقن » : الطست الكبير المجوف ، للغسيل والاغتسال .

عجبت كيف رآها ، وكيف ملك الجرأة على اقتحام البيت ، وتساءلت : لماذا خاطر ودخل السجن ؟ ومن أجل امرأة !؟ وماذا فعل بعد أن دخل عليها ؟

على ان سجن اليازرلي لم يطل . خرج بكفالة التاجر . واستأنف عمله في العنبر ، واستأنفت أنا تسجيل « التفقدات » . عادت صيحاته ومشاجراته مع العمال وفيها ، احياناً ، بعض التلميحات التي كانت تستثيره فينقلب مجنوناً لشدة الغضب.

لقد وجدت فيه « انساناً لا يخاف » واحببته من أجل ذلك .. ويوم الأحد ذهبت اليه في البيت ، فرأيت عنده «حمال البالات» وهما يشربان العرق. كان الحمال جالساً أمامه يصغي ويضرب رأسه طرباً ، واليازرلي يغني متوعداً الذين شهدوا عليه ، والذين تقوّلوا بحقــه زوراً . كان يضع كفيه على اذنيه ، وينحني على صاحبه ويصرخ :

والسبع لمــا وقع　　　النذل قال له : العمى
واللي يشهد الزور　　　يلاه بكاسات العمى!

* * *

ثم حدثت الهجرة من اللواء وافترقنا .. عشرون عاماً لم أره . لم أسمع به .. وذات أصيل ، فيما انا مع بعض الأصدقاء ، في أحد شوارع دمشق ، أبصرته عند بوابة احــدى المدارس . كان الهرم والفقر باديين عليه ، وامامه « طبلية » يبيع عليها السكاكر للاولاد ، فاقتربت منه وحييته ، وعرفته بنفسي فسلّم علي ، وقال له أحد أصدقائي ، وكان يعلم بالقصة :

– حنا اليوم معروف : كاتب!

فابتسم على شيء من أسى وذكرى ، واطرق وقال :

– نعم ... اعرفه ... بدأ الكتابة عندي ! على الأكياس !!

بعد السقوط

محمد أحمد العزب
القاهرة

في بلاد يعرف الشاعرُ او لا يعرف الشاعر أين
يرقد الناس بلا حتى مبالاة حتى على نصف المدار
يجهضون الفكر في آخر ساعات النهار
يستريحون عرايا تحت أمطار الغبار
يحرقون العشب . .
يبكون السماء السابعة
ويصلّون سكارى خلف قضبان الدوار ! !

. . .

« النواميس التي تجعل للحرف وجوها . .
أيها الناس ارفضوها » ! !
هذه الحكمة زادُ الفكر في كل مساءْ
يحتويها . .
ويغنّيها . .

ويمضي ساحباً فضل الرداء
صامتاً كالبحر . .
مقرور اليدين . .
دامعاً حتى البكاء ! !

. . .

نحن شراح البدايات . .
فقدنا حِسّنا الرَهْلِيّ في كل ابتداء
ومضغنا لقمة ممضوغة في ألف فم
وتقيأنا الخواء
نحن خاصمنا . . وهادنا . . كثيراً
واستربنا في نبوءات الرجال الطيبين
حاملي أعناقهم في كل فتح من فتوحات النساء
نحن آمنّا بهم بعد الأذان
وانتهينا . .
لا مع الصمت . .
ولا حتى بغايا أُجَراءْ !!

. . .

يذكر النجم حكايا عاشقين
أرهقاني ساعة الميلاد أرجوحة ضوء باليدين
نقشا فوق هيولى الماء شيئاً لم يكن بعدُ تَشَيّأ
أطلقا تنهيدة الأرض من الأرض . .

أطلا موسماً كان تهيأ
عانقا .. أو فارقا .. كل الجذور
يا لشكل الفكر في الشكل تفيأ !!

* * *

غائر في كل شيء ..
واهبٌ لونَ الفصول
قافز في رعشة « التنزيه »
مرْميٌّ على وجه « الحلول »
ناهضٌ في كل حرف من حروف الابجدية
أول اثنين يكون
آخر اثنين يكون
يرجع النهرُ ولايرجع ..
يمشي فوق أحطاب القرون
يضع الفأس على أصل الشجر
ويغنّي .. لايخون !

* * *

في طقوس الموت ..
في حفل سقوط الأقنعة
يسحب الفكر المغنّي في ملاهينا رداءه
ويموتْ
يشهق الحرف .. ويلتاثُ السكوتْ

يتنامى ألفُ رفضٍ قائم بين الهيولى والتحقق
تولد الاشياء في قاع التمزّق
يفقد العالم رشد الحركه
يرتمي كلُّ نقيض في نقيض
يأكل الكونُ يديه ..
في فراغ عدميّ ذابل اللون مهيض !!

* * *

أيها الطير الخرافيُّ المهاجر
لاتسافر
انت لاتحمل صوتاً
أنت لاتحمل فكر الأبديه
أنت لاتحمل في ليل السقوط
أي لون رائع ..
اي هويّه !!!

عن الغد

محمد مهران السيد

القاهرة

أَخاف من غدي ! !
تصوري هذا . .
أنا الذي قد عشت أجمل السنين . . أعشق الغدا
غنيته . .
. . قصائداً . . قصائدا
حملته ، وقلت للعذاب ، والعِدا
هذا غدي
هذا غدي
. . وانني له . . الفدا

* * *

قد كان من تصوري . . ابتسامة ترف ، لايحدها مدى
وعالما من أغنيات الحب ، لايجف من عروقها الندى
ولوحة تضم في اطارها . . كنيسة ، ومسجدا

* * *

أخافه ، أجل
فكلما رأيت .. ان يومي استدار
وعاد - مثلما أتى - النهار
.. بسلة الوعود فارغه ،
وانني طرقت .. ألف باب !!
فلم يجب سوى الصدى
- لاتحسبيني قد ضللت في الضباب
أو أنني نسيتهم ، اذ بادروا .. وغيروا الوجوه والثياب.
لا،لا.. فقد رصفت حتى الأمس دربهم .. برونق الشباب -
....
وددت لو تمدد الظلام
وأن يكون عمر ليلتي - برغم كل شيء - ألف عام .. !!

من كتاب الأرض والدم

محمد عفيفي مطر
القاهرة

- ١ -

رأيتها حبلى
في وجهها من كَلَفِ الحمل علامةٌ وساعة
يقفز عقرباها الأحمران كلما تكوَّرَتْ جمجمةُ الجنين
وصدرُها المثقلُ في حمائل الرضاعة
ترشح منه الحلمةُ المقطوعة
ترسم فوق البطن زهرة وخوذة وعربة
وفرساً بلا لجام ..

* * *

أراك يا غزالة برية
طريدةً رشيقةً رشاقةَ الموتِ
وعذبةً كالليلة الصيفية

عذابُك الغائبُ كالأغنية المنسية
لما يزل مكتشفاً وحاضراً .
أراك تحت الغيمة المشوية
في ملتقى البحرين تغسلين جرحك النازف
بالملح وبالزبَد
تراوغين الأعين الشاخصة المفرّغة
وتعبرين النهر خلسة ، وتدخلين وطن الاشجار
وتصبحين شجرة .

- ٢ -

رأيتها في صكوك الارث مكتوبة
سفراً من الانسان والازميل والحجر
رأيتها من شقوق الصيف مسكوبة
غاباتِ ايدٍ تَرَعْرَعُ في دم الشجر
وأوجهاً من حميم الطمي مجاوبة
منسوجةً بالفروع الخضر والثمر
وأعظُماً غالبتْ أكفانَها ، انقلبتْ
فراشةً حمراء مخضوبة
بالنار والغيم والرهَجِ الدوّارِ في السفر .

* * *

كانت صكوك الارث مختومة

بخاتم ملتهب وأحرف مشوية
وكان في أطرافها من سلة الأيام
زخرفةٌ كوفية
وأثرُ القوافل المغبرّة الأقدام
والزحمةُ التي تشبه عش البومة
وطنّةُ السياف والامام
والصرخة المكتومة ..

* * *

حين تقصّفتْ أصابعي ويبستْ
مفاصلُ الراحلة الملعونة
وقفتُ تحت في الصحراء تحت الشمس
أنتظر الطغراء والأوامر المسنونة
كي أستطيع الهمس

وقفت تحت الشمس واجماً مقنّعا
أنظر جلد الأرض
مستبدَلا منتسخا مرقعا
وكلما ثبّتت الشمس رماحها الحمراء في جمجمتي
قطعتُ رحلة الوقوف بالقراءة .
(أخرج من غيابة الظلمة في العباءة
صحائف الارث المقدسة

وكلما تخرّمتْ سطورُها بالأرَضَة
تهدّمتْ مدينةٌ على رؤوس ساكنيها
أو سقطت تحت نعال الروم قلعة أو مملكة
أو زحفت حدودنا وسوّرتْ مواطىء الأقدام .)

لو أن هذي الشجرة
لم تجدل الجذورَ للأعماق
لو أنها لم تطبخ الضوء بجوفها وتغزل الأوراق
لما تملكتْ شبراً على مملكة الصعود والهبوط
تمتد فيه أو تطوح ظلها المنقوش بالزهَر . .

أراك يا غزالة برية
تنتظرينني خلال كل جبل ، بجوف كل شجرة
وتركضين في الغمامة المسافرة

لو نبتتْ أصابعي المقصوفة
لكنتِ – ياغزالتي البرية –
صَبيّةً فتيّة
تمنحني كعكتَها المقدسة
وشالَها المهدَّبَ المنقوطَ بالسنابل الحمراء .

أغنيات من العالم الثالث

خالد محي الدين البرادعي
الكويت

بلخير[1]

ـ : غداً ، إنْ ينهض الانسانُ
من كهفِ الجريمة والهبوطِ ، وتشربِ الشمسَ الملايينُ
بكأس صباحها الآتي
على أنقاضِ مأساةِ
أمام المسرح المنهار بالقرصانِ والدّجالِ والعاتي
مُنَفّضةً غُبارَ الأمسِ والأسفارْ
عن تاريخ خلاّقٍ تشوهه السكاكينُ
ولاحت في رحيب الأفق أشباحُ

---

(١) بلخير ، أحد الوطنيين التونسيين أردي قتيلا برصاص احد الدخلاء الفرنسيين، بعد ساعات من التنكيل والعذاب ، من أجل قطف من العنب . والحديث عنه رمز للطغيان الاستعماري ، والبربرية الامبريالية .

وفاحت في تخضيب التُرْب ارواحُ

بلا صوتٍ ، بلا نغمٍ بلا صورةْ

وكامٌ من رمادٍ بعثرته الريحُ في الصحراءَ

أوْ مَصَّتْه أحداقٌ .. تَشَتَّتَ ضوؤُها ..

فوق المحيط العاصف الأنواءْ

فانتظروا

لعلّ الريحَ والأنواءَ

حاملةٌ الى غدنا ، الى أبنائنا صورةْ

على صفحات بعض دفاتر الذكرى مدوّنةٌ

على حدقات صبحٍ جاءَ ... مخفورةْ .

لِمَ العجبُ ؟

اذا انتفضت من الصفحات تضطربُ

اذا قالت : أنا « بَلَنْخَيْرُ » يا أحفاديَ العربُ

ولي نفسٌ تَتوقُ ، ونظرةٌ تَثِبُ

وذات مساءْ ،

قال الناسُ : نحنُ بنو التراب بتونُسَ الخضراءْ

أنبَتَنا الثرى . بين المحيط وباسمِ الصحراءْ

وحنَّ دمي لماء الأرض وارتعشت نسائمها بأعراقي

فغسلتُ الفمَ الظامي

بعنقودٍ تدلّى من عظام أبي .. ينمو بأشواقي

فمن لحمٍ تغذى التُرْبُ ، او من دمعة الثكلى

ومن لهبِ النفوس وجَدْولِ القَتْلى

. . .

وبعد الحبّةِ الأولى

– فقط أنقصتُ قطفي الحبّةَ الأولى –

كَبا النفسُ الحزينُ وشبّتِ النارُ

وتبسمت أرضُ الجدود وهَبَّ ثوّارُ

وسمعتُ من تحتِ التراب نداءَ آبائي:

غـابَ الدخيلُ ، وظلّتْ الأرضُ

. . . . .

الراهب كاميلو توريز[1]

تـرجمَ الانجيلَ واستجلى بريقَهُ

حافراً في جبهة الضوء طريقَه

بالشظـايا

ينقذُ الانسانَ من ليل التكايا

ويغني للملايين الضحايا

قصةَ الابداعِ ناراً وشظايا

يحرق القشرةَ عن سِفْرِ القضايا

---

(١) الراهب كاميلو توريز ... أحد الرهبان الذين استشهدوا في حركة الكفاح المسلح في جبال كولومبيا عام ١٩٦٦ . كان يحمل درجة دكتوراه في علم الاجتماع واللاهوت. وهو أحد الدعاة الى محاربة الامبريالية العالمية عن طريق الكفاح المسلح حـلاً وحيداً لخلاص الشعوب . تحدث عنه غيفارا في أكثر من مناسبة .

ويزيحُ الغيمةَ الدكناءَ عن سِرِّ الطوايا
عن شآبيبِ انتفاضةْ
غمرتها غفلةٌ مؤتفكةْ

. . .

يا رفيقاً من غياثٍ ، ماحياً خطَّ المآسي
عن ثراءِ التربةِ المشتركةْ

موقدَ الشمعِ بأرتالِ المصلين الحيارى
خلفَ غولٍ بربريٍّ ملأَ الكونَ حطاماً ونثارا ،
ما على الراهبِ لما انتفضتْ
كلماتُ الله في جنبيه نارا
غضبةُ المقهورِ في كفيه نارا ؟

رقصتْ في صدره كالقنبلةْ
ومضى مندفعاً في زخمِها
مُحرِقاً ثوبَ الطغاةِ القتلةْ ؟
« معنا عيسى اذا ما عاد يوماً » (١)
ورآنا فضلاتٍ مهملةْ
فاتركوني .. قطعةٌ مشتعلةْ
لأضيءَ الطرقاتْ
من أمامِ الفضلاتِ المهملةْ

. . .

---

(١) اشارة الى قول كاسترو : إذا عاد المسيح الى الأرض ، فلن يسير الا بجانبنا.

ما عليهِ
لو أقام الغَفلَ من أرض الحزانى المُمْحِلَةْ
وأفاقَ الذاتَ من سحر الوصايا المقفلَةْ
واستشفّ الصبحَ .. غطّى الليلَ بالنّار تدلّى .
قائلاً : ياأرضُ هيّا اغتسلي
فدمي ماءٌ .. وأشلائي وعاءٌ ؟

راهبٌ فكّ حصارَهْ
وانتهى – مُبْتَدئاً – في ليل شعبٍ
فرأى فيه نهارَهْ

لومومبا

– : رَعدٌ يتقصّفُ في أذنيْكْ
برق يتخطف عينيْكْ
وخزةُ سهمٍ في جنبكْ
غصّةُ شعبٍ في قلبكْ
لومومبا .. لومومبا حبّةْ
بذرت في أرض خصبةْ
وشجيرةُ خلْد لم تُلْمَسْ
في دنيا افريقيّةْ
ولهيب يدفع صبحَ الثورةِ
تحت الشمسِ الشرقيةْ

صيغ سهاما

صيغ كلاماً ، صيغ سلاما

صار الصارية الحمراء

تلطم ظهر الموج وبطن الغيم

تفتح درب الثأر أمام القوم

فاخنق إسماً خلف الاسم

واغلق ماشئت من الطرقات

لست سوى وحش محصور

بين السهم وبين الدم

فتجاهل ريح الثورات

وتناس ملتهب الرقصات

واطمر رأسك بين الرمل وبين الدم

دخن لحمي في الغليون

علم رفقائي الأفيون

وارقص بالقدم المنخورة

بين اللحم الأبيض والجاز

علك تنسى

أن القيثارة مكسورة

وبأنك وحش محصور

مابين السهم وبين الدم

الملتقى الفكري العربي :

بحث الملتقى الفكري العربي في الخرطوم (١٥ – ٢٢ آذار ـ مارس) الماضي ، الموضوعات التالية :

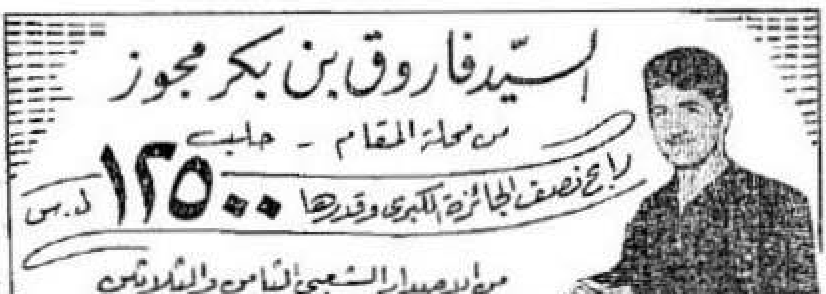
- الاطار التنظيمي للثورة العربية .
- قوى الثورة العربية .
- القضية الفلسطينية محوراً للثورة العربية .
- الأرضية التي تتحرك عليها الثورة العربية .
- الجيش ومكانه في التنظيم السياسي للثورة العربية .

اشترك في الملتقى سبعون مثقفاً عربياً .

اشترك في وفد حزب البعث العربي الاشتراكي والقطر العربي السوري السادة : مالك الأمين عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، سليمان الخش رئيس اتحاد الكتاب العرب ، أديب اللجمي رئيس تحرير مجلة المعرفة أستاذ علم النفس التطبيقي في جامعة دمشق ، أنطون مقدسي أستاذ الفلسفة في جامعة دمشق ، حسن الخطيب عضو القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني ، هيثم العقاد المدير العام لمؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع ، فوزي كيالي مفتش التربية ، ماجد بريجاوي رئيس ديوان مكتب الثقافة القومي .

دعا بيان المؤتمر الختامي الى دعم الكفاح المسلح الفلسطيني باعتباره جزءاً من الثورة العربية التقدمية ، واستنكر العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل ، وأعمال القمع الرجعية في الوطن العربي والعالم ، وأكد ضرورة العمل لتحقيق وحدة الفكر والنضال العربيين ، وأشاد بالشعوب الاشتراكية والحركات التقدمية العالمية ، وأدان بشدة استخدام السلاح الغربي ضد الشعب العربي عوضاً عن استخدامه ضد اسرائيل .





يجري سحب الاصدار العادي الرابع

بتاريخ ٧ نيسان ١٩٧٠

الفهرس